المقاومة الوطنية في جبل العرب

إبراهيم باشا المصري، العثمانيون، الفرنسيون

١

كمال صياح الحمد

المقاومة الوطنية في جبل العرب

إبراهيم باشا المصري، العثمانيون، الفرنسيون

بحث تاريخي

المقاومة الوطنية في جبل العرب

إبراهيم باشا المصري، العثمانيون، الفرنسيون

تأليف: كمال صياح الحمد

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

الترقيم الدولي: ٨ - ٩٥ - ٤٣٩ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨

الخرائط العسكرية للمواقع الحربية: العميد الركن المتقاعد نسيب الشوفي

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

تـقـديـم

لم يكن هذا البحث الذي أُقدِّمه لك أَيها القارئ الكريم، بحثا شوفينياً، متعصباً لمنطقة محدَّدة من وطننا العربي، ناضلت، وضحَّت في سبيل حريّة الوطن، وبظروف هائلة الشدة، عبر حقبة تاريخية استعمارية قاسية الوطأَة.

بل هو مقولة مفادها، أَن المقاومة الشعبية "حرب الغُوار" هي سبيل هذه الأُمة العربية المستهدفة من الصهيونية العالمية، وربيبتها إسرائيل، ومن الإمبريالية العالمية المتوحشة، والمتفرِّدة، الهادفة إلى حكم العالم.

هذا العالم الذي يريدون تشكيله من جديد، وكما تقول مصالحهم، بفعل قوى غاشمة، تمتلك الجيوش المسلحة حتى الأَسنان في البحر، والبر، والجو، وبأَفظع وسائط القتل، والتدمير، وبأَحدث وسائط التكنولوجيا المسخَّرة لقتل الإِنسان. لذلك لا يمكن لدول صغيرة وفقيرة، وشعوب يراد قهرها ونهب خيراتها، أَن تتصدى لذلك إلا بالمقاومة الجماهيرية، التي أَثبتت التجارب نجاعتها وقدرتها على المواجهة، وتحقيق النصر.

إِن هذا البحث رسالة لكل شابة، وشاب، يعيشان همَّ الوطن، ويعشقان الحرية، كي نتعلم من تلك البطولات دروساً تقول: أَن البندقية، والخناجر، والمناجل، إذا ماكانوا في يد مؤمنة بحب الوطن، وعِزَّة الحرية، سوف تنتصر. والأمثلة حاضرة في ماضينا وحاضرنا.

المؤلِّف

جبل العرب - ة تار ية، وجغرافية -

جبل باشان ـ جبل الريّان ـ جبل حوران ـ جبل الدروز ـ جبل العرب.

لقد عرف هذا الجبل أَدواراً متعاقبةً من الازدهار والتأَخُر، وذلك تبعاً للظروف السياسية، والاقتصادية.

ففي القرون الميلادية الثلاث الأُولى، عَرَف الجبل فترة ازدهارٍ لا تزال آثارها باقية حتى يومنا هذا. ولكنَّ الجبل مالبث أَن هجره ساكنه لأَسبابٍ غير معروفة تاريخياً. فخلت قراه، وخربُت مزارعه، ولذلك عندما هاجر إليه الموحدون "الدروز" كان قسم كبير من قراه ما يزال قائماً، وخالياً من السكان القدماء. وكما يقول الرحّالة القس "بورتر": لقد زُرتُ بعض قراه فلم أر فيها إنساناً أو حيواناً.

لقد تمَّ النزوح إِلى جبل العرب من قبل الدروز في أَوائل القرن السابع عشرالميلادي. حيث قدموا إليه من جبال لبنان، وفلسطين، والجبال الأَعلى ـ محافظة إِدلب حالياً. وذلك لأَسبابٍ سياسية، وعسكرية، ومذهبية عصبية.

وتتالت الهجرات إِليه. ففي عام ١٨٨٢م بلغ عدد قراه حوالي ٧٣ قرية، وعدد سكانه حوالي ٢٥ ألف نسمة.

إِنَّ أَول من أطلق عليه اسم جبل العرب هو الأُستاذ عجاج نويهض مدير الإِذاعة الأُردنية في أَيار من عام ١٩٣٧م وذلك خلال الاحتفال بعودة ثوّار جبل العرب وقائدهم سلطان الأَطرش من منفاهم الذي استمر مدّة ١١عاماً في منطقة وادي السرحان على الحدود الأُردنية ـ السعودية إِلى أرض الوطن. قال الأُستاذ نويهض في خطبته: أنتم الآن عائدون إِلى جبل الدروز، لا بل أَنتم عائدون إِلى قلعة العرب، إِلى جبل العرب، وأَجاب الحضور بالهتاف: نعم... نعم... جبل العرب.

وجبل العرب... بركاني، يقع على بعد ١٠٠كم جنوب العاصمة السورية دمشق، على الحدود السورية ـ الأُردنية إنه نجد يبلغ عرضه حوالي ٧٠كم، بينما يمتد طول المحافظة ١٢٠كم، ويبلغ عرضه حوالي ٥٠كم أَما عرض المحافظة فيبلغ ٦٦كم. مناخه جبلي بارد شتاءً، معتدل صيفاً. تربته رسوبية، ينبسط غرباً في انحدارٍ بطيء نحو الشمال، والغرب، باتجاه سهول حوران. أما في الشرق

فمرتفعاته ذات انحدارٍ شديدٍ نحو غور الصفا ، وأَعلى قمة فيه تل "القينه" ١٦٥٠م عن سطح البحر.

أَما السهول ، والمرتفعات المحيطة به، فيصل ارتفاعها عن سطح البحر من ٦٠٠ إِلى ٨٠٠م عن سطح البحر.

أَما اللَّجاة حصن ثوّار جبل العرب الحصين، وملجؤهم عند الشدائد ، فهي نجد من السيول البركانية المتحجرة وعرة المسالك، عميقة الوهاد ، كثيرة الالتواءت، تكثر فيها المغاور، والكهوف وفيها القليل من عيون الماء المتباعدة. كانت الأَشجار تغطّي معظم اللّجاة، وسفوح الجبل، وربوعه. إِلا أن يد الإِنسان لم تبق إِلا القليل من هذه الأَشجار الحراجية، كالبلوط، والسنديان، والبطم.

اعتمد سكان جبل العرب على الزراعة، والرعي والتجارة البسيطة، وكانوا يأْنفون على عادة العرب من الأَعمال الأُخرى كالحدادة، والنجارة.

وكانوا يشربون من ينابيع جبلهم القليلة، ومياه الأَمطار والسيول المتجمِّعة في بُركٍ رومانية يطلقون عليها اسم "المطخ" أَو البرْكَة.

يبلغ عدد سكان جبل العرب اليوم مايزيد قليلاً عن ٥٠٠ ألف نسمة، وعاصمة محافظة الجبل مدينة السويداء التي تقع على السفوح الغربية له.

لقد هاجر آلاف الشباب من جبل العرب إِلى الأَمريكتين، وإِفريقيا، وكندا ودول الخليج العربي، نتيجة للظروف المعيشية الصعبة وظروف المناخ السيئة، من قلّة للمياه، والقحط.

أَمّا في الوقت الحاضر، فلقد قامت نهضة زراعية جيدة من استصلاح للأَراضي، وحفر للآبار، وإقامة السدود التخزينية مما نتج عن ذلك زراعات متقدمة لأَشجار التفاح، والزيتون، والكستناء، والفستق الحلبي في سفوحه الغربية، ومعرّشات العنب. رافق ذلك، وبعد دخول الكهرباء لكل بيت، وشق الطرقات أَن ازدهرت أَيضاً نهضة عمرانية ممتازة.

وتعتبر نسبة التعليم في محافظة السويداء من أعلى نسب التعليم في القطر العربي السوري.

لقد ترسَّخت العادات العربية الأَصيلة في جبل العرب عبر لتاريخه.

فالكرم، والوفاء، والصدق، وإِغاثة الملهوف، وحمايته والفروسية، والشجاعة، وحب الوطن، والتعلق بالأرض ورفض الذل، وعشق الحرية، واحترام المرأَة، والحفاظ على العرض. مزايا اتصف بها سكان هذا الجبل وتحدث عنها الرحالة، والمستشرقون، وكذلك الكتّاب والشعراء على امتداد الوطن العربي.

ربَّ قائل يقول: أَنَّ شعور أَية مجموعة، أو طائفة بأَنَّها أَقلية في المحيط البشري الذي تعيش فيه، يدفعها للتكتل، والتضامن، والدفاع بشراسة من أجل حق وجودها. إِلاّ أَنَّ هذا الشعور لم يكن يخامر أَبداً سكان جبل العرب. إِنَّ انتماءهم القومي العربي كان راسخاً ومتجذراً في قلوبهم، لدرجة أَنهم يستغربون، بل ويستهزئون هذه المقولات، التي كان يلجأُ إليها المحتل خلال حروبه معهم، ويحاول تحريض من يحيط بهم من السكان على خلفية طائفية

نصرة له عليهم، والتي لم تكن تقابل من غيرهم من العرب إلا بردها على من يطلقها.

إِنَّ عشقهم للأَرض، والوطن،والحريّة، أَدى إِلى قيام فلاحي هذا الجبل بثورتين كبيرتين؛ ثورة العاميّة الأُولى، والثانية، واللتين سبقتا "كومونة باريس" من أَجل الخلاص من ظلم الإقطاع، والتسلُّط العائلي ودارت معارك شرسة ذهب خلالها عشرات القتلى، والجرحى وتم الانتصار أَخيراً بتوزيع الأَرض على الفلاحين وتملّكهم لها، واستعادة معظم حقوقهم التي طالبوا بها.

لن أكون شوفينياً بقلمي، وفكري، فليست البطولة وقفاً على شعب معَيَّن، أَو مجموعة بشرية، أو طائفة.

وأُمتنا العربية يزخر تاريخها القديم، والحديث بمواقف البطولة الرائعة، وندرك من خلال القراءة التاريخية والحاضر الملوس أَنَّ العديد من الأَقوام قد ضحَّت وقاتلت في سبيل حريّتها ،ودفاعاً عن أَوطانها. وكيف لنا أَن ننسى ثورة المليون شهيد في الجزائر، ضد المستعمر الفرنسي، والنضال الباسل في فيتنام طيلة عشرات السنين ضد فرنسا، وأَمريكا الغاشمتين، ومن ثمَّ انتفاضة أَطفال

الحجارة الأُولى، ثمّ انتفاضة الأقصى ضد المحتل الصهيوني في فلسطين العربية، كذلك المقاومة الباسلة في لبنان، وجنوبه ضد الكيان العنصري الإِسرائيلي المجرم في تدميره للأَرض، والإِنسان، ونضال أهلنا في الجولان من أَجل تحريره من المحتل وعودته إِلى وطنه الأُم، وأَخيراً المقاومة الوطنية الحقيقية في العراق ضد الاحتلال الأَمريكي الغاشم، والأمثلة على كفاح الشعوب كثيرة جداً عبر التاريخ الإِنساني.

إِنَّ ما أَكتبه الآن، إِنما هو برُّ الأَبناء للآباء والأَجداد... ومن ليس له أمانة لأَهله، لا أمانة له لوطنه فدائرة الحُبِّ تبدأُ من الأُسرة، ثمَّ تتسع لتشمل الوطن وكل الأُمة العربية من محيطها إِلى خليجها.

لقد قرأت الكثير عن المعارك الباسلة التي خاضها واستعر بإوارها بنو "معروف" في جبل العرب، وريف دمشق، واللَّجاة، وجبل الشيخ، وسفوح جبل لبنان.

من وجهة نظري لقد رُويت تلك الوقائع بسرد حكائي يبتعد عن التوثيق الأَكاديمي العسكري، والتحليل العلمي المدروس للإستراتجية، والتكتيك التي نفَّد بها الثوّار معاركهم.

وسأعمد ما استطعت أَن أَتلمّس العلمية، والتحيز في الرواية التاريخية. مع العلم بأَنني سأَتعرض فقط لأَهم المعارك التي جرت في مراحل النضال الثلاث: إبراهيم باشا المصري، والعثمانيين، والفرنسيين، حيث نحتاج إِلى العديد من المؤلفات لتسجيل كافة المعارك التي نشبت وهي بالعشرات.

تعود الخصوصية، والتميز في مراحل النضال الوطني في جبل العرب للأسباب التالية:

١- قلَّة عدد سكان جبل العرب خلال مجمل مراحل الصراع الدمويّ الطويل، والمرير، فعددهم رجالاً ونساءً،وأطفالاً لم يكن يتجاوز الـ ٢٥ أَلفاً خلال صراعهم مع جيش إبراهيم باشا الذي دحر الجيوش العثمانية في معارك عديدة، وأَجلاها عن الأَراضي السورية، ودخل تركيا، وهدّد مركز السلطة العثمانية. بينما كان عددهم خلال الصراع مع الامبراطورية العثمانية لا يتجاوز ٣٥ أَلفاً على أَكثر تقدير. أَما عددهم خلال الصراع ضد فرنسا العظمى فكان بحدود ٤٥ أَلفاً .

٢- عظمة قوّة الدول التي حاربوها عسكرياً واقتصادياً ، وعلمياً، وعدداً. لقد كانت دولاً إِمبراطورية تحكم شعوباً ، ومناطق شاسعة من العالم، ولها خبرة واسعة في الحروب، والطرق، ووسائط الصراع.

٣- الحشد الكبير للقوات المعادية، والأَسلحة، من حيث العدد، والنوعية من المدفعية، والدبابات، والطيران والرشاشات، مع وفرة في المعدات، والاحتياطات المادية والبشرية للمعركة، التي واجهها ثوار جبل العرب بأَسلحة

بدائية، والتي يقودها خيرة القادة من المستعمرين خبرة، وحنكة.

٤- افتقار الثوار لأَي نوع من أَنواع هذه الأَسلحة، بل حتى للبنادق ، وكثيراً ماكانت أَسلحتهم بدائية كالسيف، والبلطة، بل والعصي. لذلك كان همُّهم الاستيلاء على الأَسلحة من أَيدي أَعدائهم لمقاتلتهم بها.

٥- استخدام المستعمر لسلاح مقيت، ومؤثِّر أَلا وهو مقاتلة ثوار الجبل في الكثير من الأَحيان على خلفية عنصرية، طائفية، ومذهبية، وذلك بغرض تطويقهم وعزلهم عن محيطهم العربي، بهدف إضعافهم، ومن ثمّ تدميرهم، وخاصة في عهدي إبراهيم باشا والعثمانيين.

٦- مع قلَّة،وضحالةالعتاد العسكري، كان من الواضح أَنهم لا يملكون أَية احتياطات مادية من سلاح، وذخيرة وطعام، ولباس، بل وحتى ندرة الاحتياطات البشرية التي تغذِّي المعركة.

٧- عدم وجود أَية شؤون طبية، بل وحتى قدرة ومعرفة على القيام بالإسعافات الأولية في ساحة القتال وهذا في المفهوم العسكري يؤثِّر تأثيراً هائلاً على معنويات المقاتل

حيث يدرك أَنه فيما لو جرح سوف ينزف حتى الموت، وقصة المجاهد التي قُطِعت رجله المصابه بمنشار عادي بعد أَن تفشّت فيها الغرغرينا في منطقة اللّجاة، وبلا أَي مخدِّر، أو أَي مخفِّف للأَلم الرهيب حيث يقول الدكتور عبد الرحمن في مذكّراته أَنَّه لم يسمع من المصاب كلمةَ، أَو همسةَ توجُّع. وكم من الثّوار قاموا بتضميد أَنفسهم بعصائبهم بعد الإِصابة، ومن ثم تابعوا القتال.

٨- الواقع الجغرافي لجبل العرب: فصغر مساحته وإمكانية تطويقه، وعزله، وعدم وجود أَي منفذ نهري أَو بحري للدعم، والاتصال مع قوى مساندة للثوار، وقلة موارده، وخاصة المياه؛ تجعل منه منطقة معزولة ويمكن احتلالها، وخاصة أَن الدول العربية في ذلك الوقت كانت جميعها خاضعة للدولة المستعمرة التي يقاتلها المجاهدون، أو الدول الحليفة لها.

٩- اعتماد الثوار لمبدأ الحشد قبل الانطلاق للمعركة حيث تخفق بيارقهم فوق رؤوسهم، وتلقى القصائد الحماسية، وتنهال النخوات، وتعزف "المجاوز" أَلحانها، ويتعاهدون على التضحية، والإِقدام، وخوض القتال بكل

بسالة، وشجاعة، حيث يلحق العار كل شخص يصاب بظهره، أَويتخاذل،وهذا العار لا يطاله وحده، بل يطال أُسرته، وعائلته الكبرى، فلا تشرب قهوته، ولا يصاهر، ولا يجلس في مجالس الرجال، أَي عملياً يحكم عليه بالإعدام.

١٠- اعتمد ثوار جبل العرب مبدأ، وأُسلوب الحرب الصاعقة، وذلك بالهجوم السريع، والجريء، والخاطف والحاسم الذي يُنهي المعركة خلال فترة وجيزة لا تسمح للعدو بأي فرصة لإعادة تجميع قواته، وترتيب قتاله أَو لاتخاذ قرار جديد يناسب تطور المعركة، ومتغيراتها.

١١- التمسك بمبدأ تدمير، وسحق العدو تدميراًكاملاً ومطاردته، والقضاء ما أمكن على فلوله المنسحبة.

١٢- معاملة الأَسرى معاملة إِنسانية، بل وحتى عدم إهانتهم، حتى ولا بالكلام. فمثلاً لقد اعترفت الدولة الفرنسية، وكتبت صحفها عن ذلك مشيدة بما لاقاه الأَسرى الفرنسيين بعيد معركة المزرعة التي جرت على مشارف مدينة السويداء من معاملة كريمة، ونبيلة من قبل الثوار.

١٣- عدم اعتماد مبدأ الدفاع إِلا عند الضرورة القصوى وإِن اعتمد فلفترة وجيزة خلال المعركة. والهدف من ذلك تثبيت تقدم العدو، وخلخلة تراتيب قتاله، مع عدم السماح له باحتلال أَماكن مُسيطرة ومن ثم الانتقال للهجوم الصاعق، والحاسم، بغية تحقيق النصر الكامل.

١٤- إِبداء ضروب من البسالة النادرة التي ترعب العدو أَثناء المعركة، وتدمِّر معنوياته كاقتحام نيران الرشاشات بصدور المقاتلين، واقتحام الدبابات، ومن ثم قلبها، وإشعال النيران فيها. ومن خطبة للدكتور عبد الرحمن الشهبندر أَلقاها في مدينة حلب عن بطولات الثوار قال: لقد قُدِّرت ضربة سيف "العقباني(١)" في معركة المزرعة بقوة "أُطوموبيل"، أَي سيارة، لقد كانت ضربته تشطر الجندي الفرنسي إِلى نصفين، فيسير الجندي الخطوة الأُولى، ثم الثانية حتى يسقط القسم المفصول من جسده عن الآخر، وذلك من سرعة، وقوة الضربة.

---

[١] بطل من أبطال معركة المزرعة... استشهد بعد أن قضى على اثني عشر جندياً فرنسياً بضربات سيفه الباترة.

١٥- عدم وجود أَية دولة كبيرة كانت أَم صغيرة تساندهم، أَو تشد من أَزرهم، أَو تمدهم بالمال أَو المؤن أَو السلاح، ولا حتى إِعلامياً، أَو سياسياً، اللهمَّ إِلا إِذا اعتبرنا أَنَّ الكتاب، والشعراء هم دول كبرى، وذلك الدعم المتواضع، حصل فقط إِبان الثورة السورية الكبرى ضد المستعمر الفرنسي، حيث كان العرب السوريون يتبرَّعون ببعض مالهم دعماً للثورة.

١٦- سمعة الثوار، وشدَّة بأسهم التي ينقلها الأَعداء الذين نجوا من المعارك التي خاضوها معهم كانت طابوراً خامساً يساند الثوار، لذلك كانت الجيوش تأتي لحربهم وهي شبه منهارة رعباً من لقائهم، وفي ذلك يقول فريد أَبو مصلح من مقال له في مجلَّة الزهراء عدد كانون الثاني عام ١٩٢٦م:

(إِنَّ هذا الاسم أي ثوار جبل العرب أَصبح مرادفاً للشجاعة من كثرة ما سطَّر التاريخ لهم من بطولات ووقائع. حتى صار هذا الاسم مرادفاً في الأَذهان لمعنى البسالة، والنجدة، وكل مظاهر المروءة، مقرونة بصون اللسان،

ونجدة الملهوف، وإِكرام الضيف، وبذل النفس دونه، جرياً على عادة العرب الخُلَّص).

١٧- إِنَّ طبيعة جبل العرب القاسية مناخاً، أَعطتهم القدرة على الصبر، وقساوة العيش، ومعرفة الأرض، واستخدامها في القتال بشكل جيد، واضطرتهم إِلى حمل سلاحهم في حلِّهم، وترحالهم، وإِتقان استخدامه، بالإضافة إلى عقيدتهم الدينية التي تدعوهم إِلى احتقار الدنيا الفانية، والإِيمان بخلود الروح واستمراريتها عبر أَجيال جديدة، وخوفهم من ذل العار والجبن، واعتدادهم بأنفسهم، وحسبهم، ونسبهم.

كل ذلك جعلهم يتنافسون على الشهادة. فحامل البيرق شهاب غزالة الذي قطع مسافة تزيد عن ٨ كم سيراً أَقرب إِلى العدو ليكون أَوَّل المقتحمين لدفاع العدو الفرنسي في معركة الكفر، وكذلك أَبناء علم الدين، والأُخوة الخمسة من أَبناء حمزة من قرية رساس الذين استشهدوا وهم يتخاطفون البيرق بعد استشهاد أَخيهم حتى لا يقع على الأَرض، وهكذا سقطوا في ساحة معركة "المسيفرة"، ومن ثم تبعهم والدهم الذي كان يتبعهم بالماء،

والغذاء، فقد قصفته طائرة فرنسية، وعندما دخلت دارهم جثثهم ما كان من والدتهم إِلا أَنَّ فارقت الحياة حزناً، وكمداً على أَبنائها، وزوجها؛ فأين منها الخنساء؟!

١٨- رفضهم لأَي مصلحة إِقليمية، أَوطائفية - وكم حاول المستعمرون إِغراءهم بها - والتأكيد على أَنَّهم جزء من سوريا الأُم، وهم الذين كانوا في طليعة جيش الثورة العربية الكبرى، حيث حّرروا مدينة بصرى في ٢٥أَيلول عام ١٩١٨م وأَجلوا حاميتها العثمانية، ومن ثم تقدموا باتجاه دمشق ودارت معركة "تلول المانع" شمال الكسوة، وأَسروا الضابط العربي رضا الركابي الذي كان برتبة مقدم في الجيش العثماني، والذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء الأردن، وتابع ثوار الجبل تقدمهم، مع عربان نوري الشعلان، وعودة أَبو تايه ودخلوا دمشق في ٢٩ أَيلول ١٩١٨م،ورفعوا العلم العربي على سراي الحكومة وهم يهزجون في ساحة المرجة:

وسِّعوا المرجه والمرجه لنا
والمرجه فرجه ملعب خيلنا

١٩- الجماهيرية، والديمقراطية في النضال؛ حيث لم يبق قرية، أَو عائلة في جبل العرب إِلا وأَدَّت فريضة الدم، وكان يُرى في المعركة الشيخ الذي ناهز السبعين من عمره، والشاب الذي لم يتجاوز الخمسة عشر ربيعاً.

أَما ديمقراطية النضال فتتجلى بمقدرة أَي ثائر بسيط أَن يتحدث، ويبدي رأيه، ويناقش بكل صراحة، وجرأة وعفوية أَي قائد من قادة الثورة لايمنعه عن ذلك حارس أَو باب، فلا تميز بلباس، أَو طعام، أَو سلاح أَو أَي مظهر من المظاهر الفوقية.

٢٠- عدم توفر أَي حقل للتدريب على الرماية وركوب الخيل، أَو فنون القتال.

لقد تعلموا ذلك منذ نعومة أَظفارهم، بل إِنَّ مرحلة الطفولة عندهم كانت قصيرة جداً... فما أَسرع مايرفض الطفل طفولته، ويصر على تقليد الكبار في العديد من تصرفاته، وخاصة التي تثبت أَنه أَصبح رجلاً.

وفي ذلك يقول الجنرال (أَندريا) القائد الفرنسي في كتابه (ثورة الدروز، وتمرُّد دمشق) صفحة ٦١: (إنه فارس ثابت، محارب بالفطرة، يركب الخيل بمهارة فائقة، يتسلّح

بخنجر، أَو سيف، أَو بندقية، منذ الطفولة ماهر في استخدام سلاحه، يمشي دون شعور بالتعب، يجيد التخفي عن أَنظار العدو، وقدرته على استخدام الأرض رائعة، وهي منطلقه لمفاجأَة العدو وتوجيه الضربة القاضية إِليه، شجاعته خارقه ومذهلة، يحتقر الموت، وكثيراً ما أَذهلونا حين كانوا ينقضون على قواتنا المجهزة بالرشاشات وجهاً لوجه دون أَن يتخذوا متراساً، أَو أَي شيء يقيهم رصاصنا المنهمر، وقنابل مدافعنا المتفجِّرة).

٢١- قدرتهم على استدارج العدو إِلى المناطق الوعرة، والصعبة التي يعرف الثوار مداخلها، ومخارجها بحيث يصعب على العدو القيام بالمناورة والتطويق كما حصل في العديد من معارك اللّجاة،وفي معركة (أُم الرمّان) مثلاً التي قال عنها الفرنسيون: إِنها من أَشد وأَشرس المعارك التي خاضوها.

٢٢- لا يسمح مذهب التوحيد المنشق عن المذهب الإسماعيلي بالزواج إِلا بامرأَة واحدة، أَما الطلاق فهو طلقة واحدة لا رجعة عنها مطلقاً.

لقد لعبت المرأة العربية في جبل العرب دوراً نضالياً رائعاً خلال مراحل الكفاح ضد المستعمرين، كما أخواتها في كافة الأَمصار العربية التي كافحت المحتلين (المرأة في فلسطين مثالاً مشرِّفاً) وبرزت أَسماء بطلات ضربن أَروع الأمثلة كسعدى ملاعب، وبستان شلغين وغيرهن العشرات. لقد حرصت المرأة في جبل العرب أَن يكون زوجها، أَوأَخوها، أَو ولدها في مقدمة المقاتلين، ومن يتقاعس ينعتنه بأَقذع الصفات، ولقد كانت تحرص على تربية أَبنائها على الشجاعة، والإِقدام، وكنّ يزغردن فوق رؤوس الشهداء، وينطلقن خلف الثوار لمد يد العون لهم بالطعام، والماء ويضمِّدن الجرحى، ويشجعن المقاتلين على الاستبسال في القتال. بل وكن يتجمعن عند بئر عميقة أَو جرف صخري لرمي أَنفسهن طلباً للموت عند بوادر الانكسار حتى لا تُفتضح أَعراضهن. وهذا كان له شأنه بدفع الثوار إِلى قتال لاخيار فيه... الانتصار، أو الموت.

٢٣- لقد كان الاستطلاع، ومعرفة قوام، وحجم القوات المعادية، وأماكن تحشدها، والمحاور التي تتقدم عليها، مبدأً هاماً من مبادىء القتال التي يحرص عليها الثوار، وكانوا ينفِّذون ذلك بمهارة، وخبرة وسرعة، بالإِضافة إِلى

القتال التعرُّضي لجس نبض العدو ومعرفة نواياه. لذلك لم يستطع العدو مفاجأَتهم إِلا في ما ندر من الوقائع.

ا قاومة الوطنية
مرحلة إبراهيم باشا ا صري

مقدمة تاريخية:

كانت بعيدة المرمى الخطط السياسية التي وضعها محمد علي، وابنه إبراهيم الذي عُيِّن حاكماً أَعلى لسوريا. إِذ كان يحلم كلاهما بتكوين دولة عربية مستقلة كبيرة (لوتسكي، تاريخ الأَقطار العربية الحديث).

وكتب بالمرستون عن محمد علي في عام ١٨٣٢م قائلاً:

إِنَّ هدفه الحقيقي هو تكوين مملكة عربية تضم كل الأَقطار التي تتكلم لغة الضاد.

وأَبلغ البارون (بوالكمت) الممثل الفرنسي لدى إِبراهيم باشا أَن الأَخير لا يخفي مقاصده، فهو يرمي إِلى بعث الوعي القومي العربي، وإحياء الأُمة العربية، وغرس شعور وطني أَصيل عند العرب، وفي نداءاته كان غالباً مايُذكِّر بمجد العرب في التاريخ القديم، وأَثَّر بحماسه هذا على معنويات قوّاته التي استطاعت اكتساح الجيوش العثمانية في معارك كبيرة.

وبعد أَن وطَّد السلطة المركزية، أَعاد إبراهيم تنظيم البلدان على غرار النسق المصري، فقسَّم سوريا وفلسطين، وكيليكيا إِلى ست مديريات، وترأَس كلاً منها مدير، وعيَّنَ في كل مدينة نواباً عن السلطة المركزية، أَو مُتَسلِّمين يخضع لهم مباشرة شيوخ البلدات، والقرى المجاورة،وشكَّل تحت رعاية كل مُسلِّم مجلسَ شورى من بين الملاكين المحليين، والتجار، ورجال الدين.

وعهدت إِلى هذه المجالس وظيفة المحاكم المدنية وحصرت السلطة القضائية العليا بيد إبراهيم باشا نفسه.

رغم أَن إِصلاحات إبراهيم كانت قد ضمنت نمو القوى المنتجة بدرجة ما، وحسّنت وضع التجار، والحرفيين والفلاحين، إِلا أَنها أَثارت استياءً خطيراً في سوريا ولم يقتصر الاستياء على الإقطاعيين الذين حرمهم العهد الجديد من امتيازاتهم السياسية، بل وشمل الأَمر أَيضاً الجماهير الفلاحية، ولوحظ انعطاف حاد في مزاجهم.

وكان السبب قيام إبراهيم باشا بتدابير عسكرية تحمَّل الفلاحون كافة أَعبائها.

لقد تمَّ بناء التحصينات، وأَمر ببناء القلاع، وقام بذلك الفلاحون السوريون بشكل إِجباري،حيث حُشِدوا من جميع أَنحاء البلاد، واقتنيت المدافع على حساب الفلاحين، الذين فرض عليهم مزيد من الضرائب التي ازدادت سنة بعد أُخرى، وأخيراً تم سوقهم إِلى التجنيد الإِجباري لتوسيع الجيش، مما أَضنى الفلاحين، وأَثار حفيظتهم، فقامت انتفاضات كبيرة، كان أَكبرها وأَخطرها في جبل العرب منذ عام ١٨٣٧م.

وكتب (لوتسكي) عن ذلك قائلاً:

(قامت في حوران، والجبل الشرقي انتفاضة الفلاحين الدروز، الذين كانوا قد أُعفوا من الخدمة العسكرية لمدة خمس سنوات، وعندما انتهت المدة طلبت السلطات إرسال المجندين، وعندها ثار الفلاحون الدروز وتحصنوا في منطقة اللّجاة، وهي منطقة بركانية، على شكل متاه صخري، وباءت بالفشل كافة المحاولات التي قام بها إبراهيم باشا لاقتحامهم، وأُبيدت جيوشه في كافة المحاولات التي قامت بها، وأرسل إبراهيم باشا الحَمْلَة تلو الحَمْلَة، ومع ذلك لم يستطعيوا التغلب على الدروز رغم قلة

عددهم، وحاول إبراهيم باشا القضاء عليهم بواسطة تجويعهم، إلا أَنهم تحملوا آلام الجوع، ولم يستسلموا).

فقام بنسف آبار الشرب، وردم خزانات المياه، ورمى فيها الجثث، فشرب الثوار، وعائلاتهم المياه الآسنة ولم يستطع أن يخرجهم من اللّجاة إلا بعد تسميم المياه وحتى ورغم ذلك لم يستسلموا، فخرجوا من التطويق وواصلوا الصراع في مناطق جبل الشيخ حيث نقلوا القتال إليها. وانتهت تلك الانتفاضة في خريف عام ١٨٣٨م).

إِنَّه لمن المؤسف، بل والمُحزن، أَنَّ السياسة الخرقاء التي اتبعها إبراهيم باشا في بلاد الشام قد وأَدت قيام الدولة العربية التي أَمل العرب في شروق شمسها، ولم تكن الضرائب فقط هي المحرِّض على قيام الثورات. بل إِنّ استغلال واردات بلاد الشام، ومتطلبات الجيش بمصادرة الأَرزاق، أَو فرض شرائها بسعر بخس واستخدام اليد العاملة بلا أَجر، والتجنيد الإِجباري الذي لم يعهده السكان، ونزع السلاح من أَيدي رجال القبائل أَدى إِلى قيام الثورات، والتي من المؤكد أَنَّ العثمانيين كانوا يغذّونها في السر،والعلن. حيث قامت الثورة في فلسطين،

ففي (السلط) هاجم البدو، والفلاحون الجيش المصري، وفي الخليل هُزم الجنود المصريون واحتل الفلاحون القدس، كما قُطعت المواصلات بين يافا والقدس.

إِنَّ دولة عربية كانت ستقوم لو توفر لها سياسة حكيمة تراعي أَوضاع السكان، وعاداتهم وتعمل على تطويرهم على مراحل، فالشدة، والحكم على الطريقة العثمانية، أَدّى إِلى أُفول هذا الأَمل في نفس كل عربي.

الأَسباب المباشرة للانتفاضة على إبراهيم باشا في الجبل:

لقد أَصبح جبل العرب ملجأً لكل مظلوم من تعسُّف ولاة إبراهيم باشا. فقرّر أَن يبسط نفوذه عليه، وأَخذ ينتحل الأَسباب لذلك، من تمنُّع عن الخدمة الإجبارية ووجوب لم الأَسلحة من أَيدي السكان، وفرض الضرائب القاسية، وتسليم الهاربين إِلى الجبل.

فأَوعز إلى شريف باشا حكمدار الشام بسوق المجندين من أَبناء الجبل، فحضر يحيى الحمدان شيخ مشايخ الجبل مع وفد إِلى دمشق، طالباً التفاوض على بعض المطالب

بسبب ظروف الجبال الخاصة، وعلى رأسها الفقر، وقلة عدد سكانه، وخاصة اليد العاملة.

إِلا أَن شريف باشا رفض ذلك، وقام بصفع يحيى الحمدان على وجهه، وطرده مع الوفد مؤكداً على وجوب تنفيذ ما يطلب منهم، وعاد الوفد خائباً، مجروح الكرامة.

وقرَّر شريف باشا، وبأَمر من إبراهيم باشا، تنفيذ ذلك بالقوّة.

معركة قرية الثعلة:

التاريخ: كانون أَول/ديسمبر ١٨٣٧م.

عدد قوات إبراهيم باشا: فرقة من الهوّارة (المغاوير) ٥٠٠ فارس.

القادة: علي آغا البصيلي ـ ومتسلم حوران (محافظ) عبد القادر آغا أَبوحبيب.

منطقة التحشُّد: غرب قرية الثعلة. [1]

---

[1] الثعلة: قرية على بعد ٥كم غرب مدينة السويداء عاصمة الجبل.

موقف ماقبل المعركة: بدأَت مرحلة المفاوضات حيث اجتمع متسلم حوران بقادة الثوار الذين رجوه التوسط لدى شريف باشا التخفيف من مطالبه، فوعدهم خيراً.

شعر الثوار أَنَّ هدف المفاوضات تطمينهم، وعند عودتهم إِلى قراهم يجري البطش بهم، لذلك لم ينخدعوا بالوعود، وقرّروا خوض المعركة.

فكرة المعركة عند قائد الحملة:

١- الانتقال إلى الدفاع ريثما يتأَكد من تفرُّق الثوار إِلى قراهم.

٢- الانتقال إِلى الهجوم، والبطش بهم.

فكرة المعركة عند الثوار:

١- التحشد ليلاً، والتقرُّب المستور من الحملة.

٢- مرحلة الهجوم الليلي، والانقضاض الجريء والصاعق على العدو، والإِجهاز عليه.

سير المعركة: تقرَّب الثوار من الحملة متسترين بالظلام حيث انقضوا عليها، بعد تطويقها، وتمّت إِبادتها وذلك بالهجوم الخاطف، والحاسم.

الأَسلحة المستخدمة من قبل الثوار:

السيوف، والبلطات، والخناجر، وعدد قليل من بواريد الدك (إِم زِرْ).

نتائج المعركة: دُمِّرت الحملة بأَكملها، ولم ينجُ منها سوى ثلاثين فارساً مع قائد الحملة، وقتل عبد القادر آغا أَبو حبيب مُتَسَلِّم حوران.

تحليل المعركة:

- عدم قدرة قادة الحملة على اكتشاف نوايا الثوار والاستخفاف بقدراتهم القتالية، وشجاعتهم.

- مقدرة الثوار على إِخفاء تحشدهم، وعلى تقرّبهم من الحملة، وتطويقها بكل سِرِيَّةَ، واستخدام الأَرض بكل مهارة.

- تنفيذ الأَعمال القتالية بجرأَة، وحسم المعركة لصالحهم منفذين مبدأ الحرب الصاعقة.

ولقد أَشار أَحد قادة الثوار إِلى هذه المعركة فقال فيها شعراً:

أَوَّل فتوح الشر ذبح (البصيلي)
كسبنا خمس ميت حصان بفردها نهار

ومن هذه المعركة جاء مطلع الأُغنية المشهورة التي قالها الشاعر في جبل العرب:

عَ الهـــوارة الهـــوارة   يابصيلي وياخسارة
وحملتَكْ ما صَمَدَتْ   إلا شُربـة سيجـــارة

معركة بصر الحرير:

التاريخ: أَوائل كانون الثاني/يناير عام ١٨٣٨م.

قائد الحملة: محمد باشا مفتش الجهادية.

عدد القوات: ٨٠٠٠ مقاتل + مدفعية.

منطقة التحشد: بصر الحرير على المشارف الغربية لجبل العرب.

مناطق تحشد الثوار: قرى غرب اللّجاة؛ الدور- قرّاصة- تعاره- نجران- سميع- صميد- الخرسا- عريقة- جرين- وقم.

قرار قائد الحملة:

- عند وصوله إِلى منطقة بصر الحرير انتقل إِلى الهجوم من الحركة، وتقدم مقتحماً قرى غرب اللّجاة التي أخلاها الثوار، وأَخذ ينهب متاعها، ومواشيها.

- هاجم طلائع، وكمائن الثوار المتواجدة في قرى؛ صميد، وعريقة، والخرسا، وداما على حدود اللّجاة.

- خُدِعَ قائد الحملة بانسحاب الثوار، وتابع زحفه داخل اللّجاة.

قرار الثوار:

- قام الثوار بمهاجمة الحملة بجزء من قواتهم التي لم تتعدى بمجملها ١٠٠٠مقاتل،منفذين الاستطلاع القتالي، والإغارات، وذلك بهدف معرفة حجم الحملة، وإِيقاع أكبر عدد ممكن من الخسائر بها، قبل بدء المعركة الرئيسية، والتأثير على روحها المعنوية.

- نفّذ الثوار خطة الانسحاب المنظم بقصد إِيهامه بعدم قدرتهم على منازلته، وجرِّه إلى داخل اللّجاة.

- إِرغامه على تنفيذ المعركة الرئيسية في المكان، والزمان الذين قرّرهما الثوار، حيث أَعدّوا له الكمائن، وتأهّبوا لمنازلته في معركة حاسمة.

سير المعركة: عند وصول الحملة إِلى مكان شديد الوعورة، كان محمد باشا وأَركانه يسيرون في المقدمة، وبمفاجأَة تامة انقض عليهم الثوار من مكامنهم، قتل على

الفور محمد باشا وأَمير اللواء أَيوب بك، وأَربعة عشر ضابطاً، فتضعضعت الحملة، وبدأَت عملية سحقها، وإِبادتها وانتهت المعركة بانتصار حاسم للثوار، واستولوا على مقادير كبيرة من العتاد، والذخيرة، والأَسلحة، الذين هم بحاجة ماسة إِليها.

خسائر الحملة: قتلى ١٠٠٠، جرحى١٥٠٠.

ملاحظة: قلّة عدد القتلى، والجرحى ناتج عن قلة الأَسلحة النارية بأَيادي الثوار، ووعورة اللّجاة سمحت للعديد من الجنود بالفرار.

خسائر الثوار: ١٢٠- ١٥٠شهيداً، وذلك حسب تقديرات الثوار، أَونقلاً عنهم.

تحليل المعركة: - معرفة الثوار وبصورة فطرية لأَساليب، وتكتيك القتال من استطلاع العدو، والإِغارات، والكمائن، واختيارالمكان، والزمان، ولحظة المبادأَة.

- تنفيذ التراجع القتالي المنظّم بقصد تنفيذ المعركة الرئيسية ضمن ظروف أَفضل.

- الروح المعنوية العالية التي تتأَثّر بعدد، وحجم القوات المعادية، والجرأة، والبسالة في اقتحام الخصم وتدميره.

- استخدام الأَرض بالشكل الصحيح، وتمويه فكرة المعركة عن الخصم.

- بطولة، وصبر نساء الثوار، وأَطفالهن على صعوبة العيش في المغاور، والكهوف، وعلى الجوع، والعطش وتشجيعهن للثوار خلال المعارك للدفاع عن الأَرض والعرض. وقصة الأُم التي خنقت ولدها في مغارة يوجد بها عدد من النسوة الملتجآت خوفاً من اكتشاف العدو لهن، واغتصاب أعراضهن، لأَن الطفل أَصرَّ على أن يُعطى رغيف خبز غير مقتطع منه ولو لقمةواحدة، ورغم كل المحاولات التي قمن بها لإِرضائه إِلا أَنّه لم يصمت، واستمر في البكاء.

- قال (بوردان) قنصل فرنسا في دمشق آنذاك:

(كان ثوار الدروز يحاربون سيراً على الأقدام. سلاحهم العصي، والخناجر، والسيوف، يهاجمون الجنود لأَخذ سلاحهم. إنّ الذعر الذي كان يصيب جنود إبراهيم باشا عند هجوم الثوار عليهم، يدفعهم لرمي سلاحهم والفرار من أَرض المعركة).

حملة أحمد باشا منيكلي:

التاريخ: أَوائل شباط/فبراير عام ١٨٣٨م.

قائد الحملة: وزير الحربية في دولة محمد علي باشا (أَحمد باشا منيكلي)، الرُتبة: فريق.

حجم القوات: ١٤٠٠٠ رجل - منهم آلاي فرسان الحرس الثاني المخيِّم في حمص، وآلاي المشاة الرابع، وآلاي المشاة الرابع عشر المخيِّمَيْن في حلب، وإنطاكية بالإضافة إلى مدفعية، وبقايا قوات محمد باشا مفتش الجهادية المقتول.

- عند وصول أَحمد باشا إلى قرية تُبنه في حوران ضمَّ إِلى قواته آلاي المشاة السادس، وآلاي الفرسان التاسع وبطارية مدفعية من ٦ مدافع و ٤٠٠ من الخيالة الغير نظامية.

ملاحظة: تأخَّر إبراهيم باشا عن قيادة هذه الحملة بنفسه، لانشغاله بمقاومة الجيوش العثمانية القادمة من الشمال، وأَرسل إِلى والده لإِرسال وزير الحربية منيكلي كي يقوم نيابة عنه بقيادة هذه الحملة على جبل العرب.

منطقة تحشُّد الحملة: قرية تُبنه في حوران جنوب شرق الصنمين.

مجريات ماقبل المعركة:

- زحف منيكلي بقواته، وتجاوز قرية جَدَلْ على السفوح الغربية في اللّجاة، وبرفقته شريف باشا والي دمشق وطيفور باشا.

- نفَّذ ثوار الجبل القتال الاستطلاعي، والتعرضي، وهم يتابعون الانسحاب إِلى عمق اللّجاة.

- بعد اجتياز الحملة لقرية جدل، اتّخذ الثوار مواقعهم الدفاعية، واستعدُّوا للمعركة الحاسمة.

سير المعركة:

- تابعت الحملة تقدُّمها بنظام الأَرتال، ودخلت اللّجاة إِلا أَنّ هذا النظام تضعضع بسبب وعورة الأَرض.

- عندما بلغ الجيش مكاناً حصيناً اختاره الثوار، بدأَ القتال، حيث تمترس الثوار خلف الصخور. وانطلقت من بنادقهم النيران الخنجرية المفاجئة، والمركَّزة التي لاتخطىءُ أَهدفها.

- نفَّدت القوَّات ثلاث هجمات على الثوار إِلا أَنَّها سُحقت الواحدة تلو الأُخرى.

وفي هذا يقول أَبو عز الدين: (حتى إِذا أَدرك الثوار أَنَّ الجنود اعتراهم التعب، والخوف، والمَلَل، انقضوا عليهم

وناجزوهم بالسيوف، فهزموا الحملة، وكبّدوها خسائر جسيمة قدَّرت بنحو ٤٠٠٠ قتيل، وجريح، وأَسير وكان في عداد الجرحى وزير الحربية، مصاباً بعدة طلقات وأَنقذه من أَرض المعركة (البصيلي) إِلا أَنه توفي بعدها متأَثراً بجراحه.

الخسائر: قتلى:٢٥٠٠، جرحى:١٥٠٠.

القتلى من الضباط: أَمير لواء عدد(٢)، أَمير آلاي عدد (١)، بكباشي (مقدّم) عدد (٧)، يوز باشي (نقيب) عدد(٢٠).

تحليل المعركة، ونتائجها:

- كانت المعركة ضربة قاصمة لجيش إبراهيم باشا.

- ازدادت معنويات الثوار، والمواطنين ، ليس فقط على صعيد الجبل، بل في مجمل البلاد، فوجِّهت الرسائل من ثوار جبل العرب إِلى إِخوانهم السوريين في مذكَّرات تاريخية (أَبو عز الدين – ص ١٢٦ –):

(حَضَرَتْ مكاتبة من الدروز إِلى شيخ قرية الهيجانية وعرَّفوه أَن يعطي مكتوباً إِلى مفتي دمشق، ومكتوباً إِلى

شمدين آغا من أَعيان أَكراد الشام، ومكتوباً إِلى البوضلي في الميدان).

وقد جاء في هذه الرسائل مايلي: أَنه قد بلغكم ما جرى للعسكر، وذَبْحه، والمراد أَن تعطونا يدكم، لأَنه مرادنا ننزل على العُرضي (الجيش) نكبسه، ونكمِّل على الباقي، ونتوجه إِلى الشام، ونكمِّل على قتل العسكر فيها، ونِخْلَص من هذه الدولة نحنُ، وأَنتم.

- إِدراك إِبراهيم باشا بأَنَّه يجب اتِّباع خطة جديدة إِن كان في الإِستراتيجيا، أَو التكتيك للقضاء على ثوار جبل العرب، وذلك بعد حشد أَكثر ما يمكن من القُوّات.

معركة إِبراهيم باشا الرئيسية:

التاريخ: نيسان/أبريل ١٨٣٨م.

القائد: إِبراهيم باشا، يعاونه قائد جيوش حوران سليمان باشا الفرنساوي.

عدد القوات: ٢٠٠٠٠مقاتل ومدفعية، وأَرسل إِلى والده بطلب عدد من الجنود الأَلبان، أَبناء الجبال فأَرسل إِليه٤٠٠٠ منهم.

منطقة التحشد، ومقر القيادة العليا: بين قرية بُراق، وإِلى الشمال قليلاً من قرية الصورة الكبيرة على حدودجبل العرب الشمالية.

مجريات ما قبل المعارك:

- قَدِمَ إبراهيم باشا على رأس القوات الرئيسية فوصل قرية (تُبنه) في حوران بتاريخ ١٥نسيان، ومنها اتجه فوراً إِلى منطقة التحشد، ولم يترك في قرية تبنه سوى كتيبة واحدة على رأسها شريف باشا. ثم انضم إِلى إبراهيم باشا في ٢٥نيسان سليمان باشا الفرنساوي.

- عكف على رسم خطة العمليات، والتي تقضي بمحاصرة الثوار في اللّجاة، ومنعهم من الخروج منها وردم، وتسميم منابع، وخزانات المياه.

- وزع الكتائب على القرى المحيطة باللّجاة، وهي:

الثعلة - الهيّات - مسمية - تبنه - بصر الحرير - نجران - بُراق.

سير المعارك:

تقدَّم إبراهيم باشا لردم المياه، فتصدى له الثوار، ودارت معارك هائلة، كان أَبرزها معارك: براق خسائره فيها

أَكثر من ٢٠٠٠ قتيل ماعدا الجرحى، ومعركة داما، ومعركة جرين.

واستمر القتال مدة تزيد عن الشهرين استطاع فيها الثوار تكبيده الخسائر الفادحة، مما اضطره إِلى التراجع عن اللّجاة.

ويقول الشاعر أَبو علي الحناوي، وكان أَحد أَبطال تلك المعارك:

ستون كون نقابلو، وما نهابو

ونكسر جيوشو بقوة المختار

وكانت آخر معركة كبيرة هي معركة رسم الرطل في أَواخر شهر حزيران من عام ١٨٣٨، استمرت أَكثر من ١٢ ساعة، اضطر ثوار الجبل بعدها نقل المعارك إِلى مناطق جبل الشيخ، وكان من أَبرز القادة المشهورين شبلي العريان، والأَمير عماد.

وهذا لايعني أَنَّ القتال توقف تماماً في جبل العرب، بل بقيت المناوشات وخاصة على منابع المياه.

أصبح وضع جيش إبراهيم باشا صعباً للغاية... فقواته المبعثرة في جميع أنحاء سوريا أصبحت تعاني من الجوع،

والأمراض، وقطع الثوار خطوط مواصلاته، وحاصر الأسطول الإنكليزي السواحل، والموانئ، وقام بقصف السواحل، واحتل الثوار بمساعدة الجيش الإنكليزي عدداً من المدن الساحلية.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٨٤٠م اقترب الأسطول الإنكليزي تحت قيادة الأدميرال "نابير" من الإسكندرية... وقدم نابير إنذاراً إلى محمد علي...هدَّد فيه بإطلاق النار على القاعدة الرئيسية من الأسطول المصري... وهكذا اضطر محمد علي بدءاً من ٢٧تشرين الثاني عام ١٨٤٠م إِلى الجلاء التام عن سوريا ، وفلسطين.

وهكذا تم تسوية القضية المصرية في أول حزيران "يونيو" من عام ١٨٤١م بإصدار خط شريف أي مرسوم من السلطان العثماني الذي عادت إلى احتلال بلاد الشام بعد مفاوضات بين الدول... احتفظ فيها محمد علي بدولته، وحكمه على مصر، والسودان ـ وراثياً ... واعترف بتبعيته إلى السطان العثماني، وتعهد بدفع جزية كبيرة إلى الدولة العثمانية.

ا قاومة الوطنية جبل العرب
ضد الاحتلال العثما

لقد كان تدخل الدول الغربية في شؤون الكيان العثماني المريض، وخاصة التدخل الإنكليزي، وانكسار محمد علي عام ١٨٤٠م، بداية عهد جديد في تاريخ البلدان العربية. وهو عهد تغلغل الرأسمال الأَجنبي فيها، ويعتبر ذلك فاتحة الاستعمار، والتبعية الاقتصادية، وإِثارة النعرات الطائفية، والفتن، وساعد على ذلك عودة الحكم العثماني الذي أراد إِعادة سيطرته بشتى الوسائل.

لكنّ سكان بلاد الشام، الذين لعبوا دوراً هاماً في إِجلاء محمد علي عن بلادهم، ما أَكسبهم الثقة بالنفس، ونشر بينهم بذور التحرر، والقومية؛ انقلبوا على الإِقطاع، ومن أهم ثوراتهم انتفاضة حلب عام ١٨٥٠م، والثورتان العاميتان (الفلاحيتان) في جبل العرب.

كل ذلك خلق الممهدات لنهوض جديد في النضال التحريري. لذلك التقى العثمانيون، والدول الغربية على سياسة فرِّق تسد في الوطن العربي.

وعلى أثر الفتن التي نشبت في لبنان منذ عام ١٨٤٢م هاجرت العديد من العائلات الدرزية إلى جبل العرب واستقرت في القرى المجاورة لطرف اللّجاة الغربي، إلا أَن الدولة العثمانية لم تقبل أَن تتمركز تلك العائلات على أَبواب اللّجاة. فقرَّرت إزاحتهم عنها، وأَخذت بإرسال القوات، ونشبت المعارك مما اضطر السكان إلى التراجع عن الخط: المسمية ـ إزرع، إلى خط آخر يقع على القُرى: تعارة ـ صمَّا ـ الداره ـ سميع ـ الأُصلحة ـ بكَّا.

وعُقد اجتماع في قرية قرّاصة رفض فيه الثوار مطالب القائدين جميل بك، وعاكف بك، ومنها أَن يقبل الثوار بناء الثكنات العسكرية في الجبل، وعدة مطالب أُخرى. ويقول محمد كرد علي مشيراً إلى مواقف الدولة العثمانية من سكان الجبل: (لو كانت الدولة بذلت شيئاً من العناية، كأَن تنشر التعليم، وتفتح الطرق، وتعطف على المنطقة، وتدخل عليها ما أَمكن من أَسباب النجاح والأَمن. لاستغنت هي، والأُمة عن مقاتلة ثوار الجبل وهم بعض أَبنائها. إنَّ هذا الشعب العربي الأَصيل إنما هو قوَّة في بلاد الشام، وأَية قوَّة). ويقول شاعر فرنسا الكبير (لامارتين) من قصيدة له يمتدح فيها بطولات أَبناء جبل

العرب إِبان كفاحهم الاستعمار العثماني: (إِنَّ العلم الأَحمر ذو الهلال الشاحب لا يخشى في العالم شيئاً، إِلا أَسنَّة رماح الجبل).

معركة صاري عسكر:

التاريخ: ١٨٥٢م.

القائد: محمد باشا القبرصي.

عدد القوات: غير معروف، ويذكر أَنها حملة كبيرة.

مكان المعركة: قرب بلدة أُزرع.

مدَّة المعركة: عدة ساعات.

نتيجة المعركة:

- دُمرِّت فيها قوات القبرصي، واستولوا على عدة مدافع وأَسلحة، وذخائر، وبقيت المدافع بحوزتهم حتى قام واليا دمشق، وبيروت فوسَّطا سعيد بك جنبلاط للتباحث مع الثوار، وأعادوا تلك المدافع. (مذكرات محمد كرد علي).

خسائر الحملة: حوالي ٤٠٠قتيل، خسائر الثوار: ٩٠شهيداً.

معركة قرّاصة:

التاريخ: ١٨٥٦م.

قوّات العثمانيين: قائدا الحملة: جميل بك، وعاكف بك على رأس لواء مشاة ولواء فرسان وكتيبة مختلطة ومدفعية.

قوات الثوار: ١٣٠٠ - ١٥٠٠ مقاتل.

ساحة المعركة: أَراضي قرى؛ الدور ـ قرّاصة ـ تعاره ـ وصولاً إِلى مشارف قرية نجران.

سير القتال: انطلق فرسان الثوار يناوشون الحملة خلال تقدمها، ووصولها إلى المشارف الغربية للجبل، ويوقعون بها الخسائر، وكان الخط الدفاعي الرئيسي للثوار الذي لا يُسمح بالتراجع عنه هو قراصة – تعارة، وفي العمق نجران.

- تراجعت خيالة الثوار تراجعاً قتالياً إِلى الخط الدفاعي الرئيسي، والتحقت بالمشاة من الثوار.

- بدأت المعركة الرئيسية شرسة دموية، واقتحم الثوار صفوف الحملة بالبلطات، والسيوف، والأَسلحة النارية مما أَبطل عمل المدفعية المعادية، وهذا ما قرّره الثوار لكسب القتال.

- بدأَت الحملة بالتراجع الغير مُنظَّم مما أَوقع بها أفدح الخسائر، وكسب الثوار مزيداً من الأَسلحة والذخائر، والخيول، والبغال.

نتيجة المعركة: الحملة العثمانية خسرت حوالي ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ قتيل وكسب الثوار ٢٠٠٠ بندقية.

خسائر ثوار الجبل: ٢٠٠ ـ ٢٢٠ شهيداً.

معركة ولغا:

التاريخ: ١٨٨٨م ـ وأَواخر شهر آب/أغسطس.

قائد الحملة: ممدوح باشا.

عدد القوات العثمانية: ٦كتائب مشاة ولواء فرسان ومدفعية.

سير المعركة: تحصّن ثوار الجبل في منطقة صخرية تدعى الشقراوية بالقرب من قرية (ولغا)، واستبسل الثوار في قتالهم فتراجع الجيش العثماني إِلى منطقة سهلية، فترك الثوار مواقعهم الحصينة، وطاردوا الجيش الذي كان انسحابه خدعة، فصبّ الجيش عليهم نيراناً غزيرة من

نيران البندقية الحديثة، والمدفعية مما اضطر الثوار إِلى التراجع وخسران المعركة.

الخسائر: - من الجيش أَكثر من ٣٠٠ قتيل.

- من الثوار أكثر من ١٠٠ شهيد.

نتيجة المعركة:

١- دخول الجيش العثماني مدينة السويداء، ولأَول مرّة.

٢- إِنَّ انتصار الجيش التركي سببه تعاون بعض الزعماء في جبل العرب مع العثمانيين الذين فقدوا بعض امتيازاتهم نتيجة لثورة الفلاحين عليهم، وكان على رأس أولئك المتعاونين ابراهيم الأطرش.

٣- انقسام الجبل، وضعفه بعد الحركة العامية الثانية، مما أَدى إِلى عدم اشتراك كل القوى في الحرب ضد العثمانيين.

وفي ذلك يقول شبلي الأَطرش الذي كان نصيراً للحركة العامية، أَو هكذا يبدو:

ظهر عُقْبها عسكر ع أَرض السويدا

ممدوح باشا قائد الجيش حاكم

يومٍ وطى وعرة الشقراوية

قالوا الدروز اليوم خبط العمايم

بزر الفرنجي كالبَرَد من مزونها

و دوي المدافع كالرعود الرزايم

من غير طولة شرح راحت كسيره

كم حُرَّةٍ تبكي دموعاً سواجم

ونتيجة للتعسف العثماني، وتطبيق التجنيد الإِجباري والتحيز في المنازعات، وخاصة مع الجوار، أَرسلت الدولة العثمانية في عام ١٨٩٣م ثلاثين أَلف جندي بقيادة أَدهم باشا فتفجَّرت المعارك الشرسة على حدود الجبل، وحصلت معارك في قرّاصة، ونجران والسجن (المزرعة) وأُم العلق. تغلّب فيها الجيش ودخل السويداء منتصراً وأَصدرت الدولة العثمانية عفواً عمَّن استكان له من الثوار، ثم غدرت بهم، ونفت أَكثر من ٢٠٠ شخص إِلى خارج سوريا.

معركة خراب عُرمان:

التاريخ: تشرين أَول/أكتوبر من عام ١٨٩٦م.

أَسباب المعركة: قدمت مفرزة عثمانية إِلى قرية عُرمان في المنطقة الجنوبية من جبل العرب، بحجة اعتقال نواطير القرية (حراس المزروعات) بناء على شكوى من الرُعاة، ونزلت المفرزة ضيفاً على مختار البلدة محمود أَبو خير، وأَثناء تقديم الطعام استعجل الضابط العثماني وبشكل وقح جلب النواطير لسوقهم مخفورين، فقال المختار: تفضل على الغداء، (لاحق تاخذ الزُلُم).

فأَجاب الضابط: (وبدّي آخذ راسك كمان).

فهجم صاحب البيت بسيفه على الضابط، فعاجله الجنود بإطلاق النار عليه، وقتلوه.

وتحصَّن الجنود بإحدى مضافات القرية، فصعد الأَهالي ونقبوا سقفها، وتم القضاء على المفرزة العثمانية.

وعندئذ جهّز ممدوح باشا حملة كبيرة، وأَقسم على تدمير قرية عرمان فوق رؤوس ساكنيها.

قوام الحملة: ٤كتائب مشاة و٢كتيبة خيالة و٤مدافع.

قرار ممدوح باشا: تتقدّم الحملة ليلاً، وتطوّق البلدة وتعزلها عن القرى المجاورة، ثم تفتك بها.

قرار ثوار البلدة: انتظار الحملة على مشارف البلدة ورصد تحركاتها، والدخول معها في معركة دفاعية، وبعد قتل أَكبر عدد ممكن من القوات يتم الانتقال إِلى الهجوم.

ملاحظة: لقد قرّر بعض زعماء المنطقة، ومن لفَّ لفَّهم عدم الدخول في المعركة ضد العثمانيين لمآرب شخصية وبحجة عدم القدرة على مواجهة الحملة.

سير المعركة: في منطقة تدعى كرم أَبو شبابيك (خراب عرمان) كشف الرُصَّاد من الثوار تقدم الجيش، الذي لم يصل إِلى المنطقة إِلا بعد طلوع الفجر ففقد عنصر المفاجأَة لأَنَّ الدليل وهو من سكان الجبل قصد إِطالة الطريق على الجيش حتى يتسنى لأَهل عرمان المعرفة بالأَمر، واتخاذ الاحتياطات للدفاع عن أَنفسهم. انتظر الثوار مرور الجيش في مضيق من الأَرض، وكان قائد الحملة يسير في المقدمة فأَطلق الثوار النار، وقتلوا فرسه فدبَّت الفوضى في صفوف الحملة، إِلا أَن قادة الحملة أعادوا السيطرة ونشروا قواتهم، وربَّضوا مدافعهم على منطقة صخرية مشرفة، وأَصبحت تدعى حتى الآن رُقة المدافع، وأصلوا الثوار نيراناً حامية مما اضطرهم إِلى التراجع حتى (الجِل

ـ الحيطان ـ الثاني لكروم العنب، والتين) وتقدم جنود الحملة إِلى الأَمام مع محاولة تطويق الثوار، إِلا أَنَّ محاولة التطويق فشلت وازداد الضغط على الثوار القليلي العدد ـ حوالي ١٥٠ ثائراً ـ فتراجعوا إِلى (الجِل الثالث) لكروم البلدة، وحتى تلك اللحظات العصبية لم تأت أَية نجدة للثوار من القرى القريبة، وهنا تدخّلت المرأة، حيث كانت نسوة القرية في الخلف يضمِّدن الجرحى، ويجلبن الماء، وأَمام الموقف العصيب والمستجد انطلقن يشجعن المقاتلين، ويهزِّئن المتقاعسين ويضربوهن بالحجارة، والعصي، وبرزت منهن المرأَة الباسلة (سعدى ملاعب) التي انطلقت مع صويحباتها نحو الصفوف الأَمامية وهي تزغرد، وتُنَخّي المقاتلين وتقدمت امرأة أُخرى فخلعت غطاء رأسها، وحلَّت شعرها، واجتازت الثوار، وهي تصيح: (إنتو بتعرفوا شو بدهن يفعلوا بالحريم إِذا مابدكم تحمونا). إِنّ بطولاتهن تذكِّرنا ببطولات النساء العربيات المسلمات في موقعة اليرموك الخالدة، حيث الأَدوار المتشابهة بعد أَن أَوصاهن القائد العظيم خالد بن الوليد قائلاً: (إِذا رأيتنَّ الرجال أَحجمت فاضربن على وجوههم بالعصيّ).

وهنا اشتعلت (النخوات) من جديد، وكان بين المقاتلين من أَطلقوا على أَنفسهم لقب (الزغابى)، وأَحدهم هو البطل (طحيمر الصيقلي) وهو من مسيحيّي جبل العرب الذي بقي يقاتل دفاعاً عن صديقه الجريح حتى استشهد وعند الظهيرة تواردت النجدات من القرى المجاورة، وخاصة قرية صلخد،وهنا تغيَّر وجه المعركة ودبّ الذعر في صفوف الجيش لوصول النجدات، وانطلق الثوار في هجوم معاكس جريء، وتسابقوا للفتك بالحملة بالسلاح الأبيض، حتى حولوا تراجعه لهزيمة منكرة وأَصبح همُّ كل جندي النجاة بنفسه.

أَرسل ممدوح باشا فرقة أُخرى لنجدة الجيش بقيادة محمد الجارودي، وعندما رأى الجارودي ماحلَّ بالجيش انكفأَ هارباً على فرسه الصفراء.

وهنا قال الشاعر مُؤَرخاً ذلك شعراً:

صفرة جارودي غرَّبَت   قوطر يحثْ ركابها
يا محمد خَبِّر دولتك   حِنّا كسبنا طوابها

قوطر: تراجع، الطوب: المدفع

الخسائر من الجيش العثماني:

من ١٠٠٠ إِلى ١٢٠٠ قتيل ومدفع عدد ٢ وأَسلحة وذخائر، وخيول، وجميعها غنمها الثوار.

خسائر الثوار: حوالي ١٥٠ شهيداً.

نتائج المعركة:

- أَعادت هذه المعركة الثقة لثوار الجبل، بعد المعارك السابقة التي خسروها.

- حاصر الثوار القائد العثماني ممدوح باشا في مقر قيادته مدة ٢٨ يوماً مستخدمين بنادق (الباليك ـ أُم زِرْ).

- جهَّز العثمانيون حملة عام ١٨٩٧م بقيادة المشير طاهر باشا لمساعدة ممدوح باشا.

- نقل الثوار عيالهم، وأَرزاقهم إِلى اللَّجاة، واستعدوا لمواجهة القوات التي زحفت من حلب حتى حيفا واشترك في الحملة قوات من المرتزقة.

- وقعت معركة في (تل الحديد) غربي السويداء ودخل الجيش إِليها بعد خسائر جسيمة وقعت بين صفوفه.

- تتالت المعارك في اللطخة ـ قنوات ـ قصور قرماطة ـ الجمح ـ معلقات ساله ـ قصر الدباغ ـ شهبا.

- عرض القائد العثماني الصُلح، فاختلف الثوار فيما بينهم، وأَرسلت الدولة الأَمان للثوار،فعادوا إِلى قراهم لكن العثمانيون غدروا بهم، واعتقل المئات من الشباب وسيقوا إِلى الخدمة الإجبارية، ونفي العديد من وجهاء وقادة الجبل، وبقوا في المنفى، حتى توسط من أجل إِعادتهم إِمبراطور أَلمانيا (غليوم).

معارك ثوار جبل العرب مع سامي باشا:

في سنة ١٩٠٣م قامت الدولة العثمانية ببناء قلعة للجيش شرقي السويداء، فأَخذ السكان يغيرون على العمال لمنعهم من بنائها، فأرسلت الحكومة قوات عسكرية من دمشق للحماية، وتصدى لها الثوار عند قرية بصر الحرير على المشارف الغربية للجبل حيث كانت خسائر الجانبين كثيرة، وتحشد الثوار في قرية الكفر في وسط الجبل.

زحف سامي باشا بجيشه، وخيّم جنوب قرية الكفر.

قام الثوار بمهاجمته قبيل فجر الأَول من شهر تشرين الأَول عام ١٩١٠م، وفتكوا بالجند، ثم انسحب الثوار بعد تتالي النجدات للجيش.

تمكن سامي باشا من السيطرة إِلى حدٍّ ما على الموقف فقام باعتقال حوالي ٣٠٠ شخص من الثوار، وعلى رأسهم القادة السبعة، الذين حكم عليهم بالإعدام، ونُفِّذ بهم شنقاً بشهر آذار/مارس من عام ١٩١١م في ساحة المرجة بدمشق وهم ذوقان الأَطرش والد سلطان القائد العام للثورة السورية الكبرى على الفرنسيين فيما بعد، والشيخ الديني أَحمد الهجري الذي عفا عنه سامي باشا لمنزلته الدينية في الجبل وكبر سنه، ومحمد القلعاني، وهزّاع عز الدين، وحمد المغوِّش، ويحيى، ومزيد عامر.

وتتالت الأَحداث الغير مستقرة في جبل العرب، حتى قامت الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م، والتي لعب فيها ثوار جبل العرب، وعلى رأسهم القائد الكبير سلطان الأَطرش دوراً بارزاً ومجيداً.

المقاومة الوطنية
ضد الاستعمار الفرنسي

مدخل تاريخي:

ساندت فرنسا، وإنكلترا بجميع الوسائل الاتجاهات الانفصالية في الأَقاليم العربية التابعة للباب العالي وسعتا لاجتذاب العرب إِلى جانبيهما لدعم مركزيهما عند اقتسام تركه الدولة العثمانية في المستقبل(الرجل المريض).

وقد أَبدت فرنسا نشاطاً خاصاً، إذ أَقامت القنصليتان الفرنسيتان في دمشق، وبيروت، حيث قامتا باتصالات حثيثة مع القوميين العرب في كلا البلدين، وموّلتا العديد من الصحف، وأنفقت فرنسا الأَموال الطائلة لتأسيس المدارس الفرنسية في سوريا، ولبنان.

وفي العام ١٩١٢م أَعلن ريمون بوانكاره رئيس وزراء فرنسا أَنَّ لبلاده مصالح خاصة في سوريا، ولبنان.

وسرعان ما تلقى بوانكاره الدعم، والاستناد من قبل غراي وزير خارجية بريطانيا، وذلك باسم حكومته.

تتالت الأَحداث، وبدأَت العمليات الحربية في تشرين الأَول من عام ١٩١٤بين إنكلترا، والدولة العثمانية، وفي الجزيرة العربية نجح الإنكليز عام ١٩١٥م بمعونة أُسطولهم في صد محاولات القوات العثمانية لاحتلال عدن، وبين العامين ١٩١٥ـ١٩١٦م نجحت الاستخبارات، والدبلوماسية الإنكليزية في الإِعداد للثورة في الحجاز، وبينما كان الثوار العرب يحاربون بحد السيف من أَجل الاعتراف بحقوقهم في تأسيس دولة عربية مستقلة، كانت تجري سراً مفاوضات بين الدول الحليفة في الغرب حول اقتسام المنطقة العربية. وفي آذار من عام ١٩١٦م قدم إِلى بطرسبورغ المبعوثان الخاصان سايكس عن إنكلترا، وبيكو عن فرنسا، وفي مجرى المفاوضات وضعت الاتفاقية المعروفة حول التقسيم بين الدولتين الاستعماريتين. ولوِّنت على الخريطة العربية اللون التابع لكل منهما. وأَخذت بعين الاعتبار قضية استيلاء فرنسا في لونها الأَزرق على احتلال سوريا ولبنان، وكيليكيا، والجزء الجنوبي الشرقي من الأَناضول.

وعندما وضعت الحرب العالمية الأُولى أَوزارها وهزمت الدولة العثمانية، سارعت الدول الحليفة لتنفيذ المخططات

الاستعمارية، وفي العام ١٩٢٠ قدم الجنرال غورو الفرنسي، الذي كانت قواته قد دخلت لبنان وتقدم باتجاه سوريا بعد إِرسال إِنذاره الشهير إِلى الحكومة السورية، فخرج الجيش السوري القليل العدد والعدة للدفاع عن الوطن، وعلى رأسه وزير الدفاع الشهيد يوسف العظمة، وجرت معركة غير متكافئة دخل على أَثرها الجنرال غورو دمشق وهكذا بدأَ الاستعمار الفرنسي، حقبة بغيضة من التاريخ على الأَرض العربية السورية.

لجأَت فرنسا بعد احتلالها لسوريا، ولبنان إلى قمع الحريات، و إِثارة النعرات الطائفية، وتجزئة الوطن إِلى دويلات هزيلة، كما فرضت الأَحكام العرفية، والغرامات الباهظة على السكان، وأَضعفت تدريس اللغة العربية وأجبرت الطلبة على التحدث، والكتابة باللغة الفرنسية وشوَّهت كتب التاريخ العربي، وأَغرقت الأَسواق المحلية ببضائعها، وأَعطت الامتيازات الكبيرة لعملائها.

حركات النضال الشعبي في سوريا:

خاض الشعب العربي في سوريا كفاحاً مريراً، من أَهمِّه:

- ثورة الدنادشة عام ١٩١٩م في منطقة تل كلخ.
- ثورة الشيخ صالح العلي في جبال اللاذقية.
- ثورة إبراهيم هنانو في جبل الزاوية.
- ثورة الأَمير فاعور في جبل عامل.
- ثورة الفرات عام ١٩٢١م.
- ثورة جبل العرب عام ١٩٢٢م.

وقد استمرت تلك الثورات حتى عام ١٩٢٣م، ومهّدت لقيام الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥م.

الثورة السورية الكبرى:

تعريف: هي ثورة منظمة، وكفاح مسلح ضد الاحتلال الأجنبي. أَداتها الجماهير الشعبية الكادحة، (مرقَّعي العُبي) كما وصفهم سلطان الأَطرش، ديموقراطية المسار.

هدفها الاستراتيجي تحرير الوطن، كل الوطن. شعارها الحرية، والوحدة، تحت راية العروبة. وتحت هذه الأَهداف جاء بيانها الأَول.

تقديم: لكل ثورة.. شرارة صغيرة تلهب النيران المتأَجِّجة تحت الرماد.

اعتبر بعض المؤرخين أَنَّ امتهان فرنسا للعادات العربية كحادثة الشهيد أَدهم خنجر الذي التجأَ لدار سلطان الأَطراش في قريته القريا هرباً من ملاحقة الفرنسيين له هو السبب في قيام الثورة على المستعمر في جبل العرب ولكن هل تقوم الثورات حسب رغبة شخص ما، ومهما علا شأنه.؟! إِن الثورة تفاعل جماهيري متأَجِّج، يستمر كامناً، محتقناً، يتفاعل في الفكر،والكلمة،والسلوك الفردي، والجماعي، ولأَسباب متعددة، ثم يتفجر إِعصاراً شعبياً، يحدد أهدافه الواقع الراهن، والرؤى المستقبلية، فتتوضح السبل، والمرامي، فارزاً القيادات الوطنية، والجريئة، القادرة على إدارة دفة الصراع وتوجيه الثورة للغايات المنشودة.

لقد بدأت عوامل الثورة في جبل العرب، شأنها كما في ضمير الشعب في سوريا، منذ اللحظات الأولى لدخول المستعمر الفرنسي أَرض الوطن، وكيف لا وثوار الجبل طالبوا فيصل بن الشريف حسين بالقدوم إِلى الجبل

وتشكيل حكومة سورية تناجز الفرنسيين، ويكون قاعدة، ومقر قيادة تحرير الوطن. إلا أَن فيصل الموعود من قبل برطانيا، وفرنسا بكرسي المُلك في العراق صمَّ أُذنيه، وأَسرع مغادراً إِلى أُوروُبا.

بدأَت عوامل تفجُّر الثورة في جبل العرب تتفاعل أَكثر فأَكثر، نتيجة للقمع، والقهر، واستياء السكان بشكل خاص من تصرفات حاكم الجبل (كاربييه)وجواسيسه من معلمي المدارس المستقدمين إِلى الجبل بتقاريرهم الظالمة، وإجبار المواطنين على تكسير الحجارة على قارعة الطرق وأَيديهم مغلولة، ورغم المطالبة المستمرة من المفوض العام الفرنسي الجنرال ساراي بعزل هذا الحاكم المستبد، إِلا أَن طلبهم قوبل بالرفض.

نتيجة لمجمل العوامل القاهرة بما فيها الضرائب الجائزة تفجَّرت الثورة من جديد، والتي عملياً كانت بداياتها منذ العام ١٩٢٢م عندما اقتحم سلطان الأَطرش، ورفاقه مفرزة من المصفحات الفرنسية وقتلوا قائدها، وعدد من الجنود ظناً منهم أَنَّ الثائر أَدهم خنجر محمول بإحداها. ورداً على ذلك قام الفرنسيون بإرسال عدد من طائراتهم، وقامت

بقصف دار سلطان الأَطرش في قريته القريا، ودمّرتها تدميراً كاملاً، وكان ذلك بتاريخ ٢٤ تموز من عام ١٩٢٢م، وكان سلطان قبيل القصف قد أَخلى داره تحسباً لما سوف يأتي، وقام بإرسال أسرته ومواشيه إِلى شرق الأُردن، وفي ٧ آب ١٩٢٢م عاد سلطان من الأُردن، ومعه عدد من رفاقه عن طريق خربة بُرد، وهناك قابلته قوة فرنسية، فاشتبك معها في قتال عنيف، فقتل قائدها، وعدداً من جنودها، وعاد إِلى الأُردن، وفي ٧ أَيلول ١٩٢٣م قصفته الطائرات الفرنسية وقام الثوار بإصابة إِحداها بنيران بنادقهم، وبمناسبة عيد الاستقلال في ٥ نسيان ١٩٢٣م لدولة جبل الدروز التي رفضها مجمل سكان جبل العرب. قام الفرنسيون بالعفو عن سلطان الأَطرش، وأَعلن ذلك مندوب المفوض السامي (المسيو شفلر).

في ١٨تموز/يوليو من عام ١٩٢٥م أُسقطت أَول طائرة فرنسية برصاص الثورة، فوق قرية متان، وهاجم الثائر سلطان الأَطرش، ورفاقه دار البعثة الفرنسية في صلخد وحرقوها.

وفي ٢٠تموز من نفس العام خرج الكابتن (نورمان) على رأس حملة فرنسية لإلقاء القبض على الثوار والاقتصاص منهم.

معركة الكفر:

التاريخ: ٢١ تموز/يوليو ١٩٢٥م.

قائد الحملة: الكابتن (النقيب) نورمان.

قوام الحملة: ـ سرية فرسان سباهيين العدد ١٠٠ قائدها الكابتن (ماي) + الملازم (كاريار).

- سرية مشاة العدد ١٢٠ قائدها الملازم (هلم غيزون).
- فصيلة رشاشات متوسطة عدد٦ وعناصر عدد ١٨.
- الطبيب: (فورتزييه).
- المجموع: ضباط عدد ٨، عناصر عدد ٢٣٨.

منطقة التحشُّد للقوة الفرنسية: قرب قرية الكفر.

يقول الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في وصف هذا المكان: (إنَّ المكان الذي تحصَّن فيه الفرنسيون من أَوعر وأحصن ما رأَت عيني، إِنها بشكل صحن دائروي كبير

من الصخر،وكل صخرة فيها متراس قائم بذاته، إِنها قلعة لا قبل لأَحد بمهاجمتها، أَو مفاجأَتها، إِلا من أُتي إِيمان الأَنبياء، وعزم الجبابرة).

منطقة تحشد الثوار: نبع العيِّن يبعد عن مكان تموضع الفرنسيين بمقدار ٨ كم وإِلى الجنوب الشرقي.

القوام: مشاة عدد ٢٠٠ وفرسان عدد ١٥٠.

السلاح: بنادق، سيوف، خناجر، بلطات.

فكرة المعركة، والقرار لدى قائد الحملة الفرنسية:

التحشد، واحتلال الدفاع الدائروي بانتظار وصول نجدات أُخرى، ومن ثم الانطلاق جنوباً لملاحقة الثوار (اللصوص الذين سأسوقهم بهذه العصا) وكانت حجة الفرنسيين لتمويه تحركهم، الإِعلان عن إِجراء مناورة تدريبية.

فكرة المعركة، والقرار لدى قائد الثوار سلطان الأَطرش ورفاقه: مفاجأَة الحملة الفرنسية في منطقة تمركزها والقضاء عليها.

سير المعركة:

١- قام قائد الحملة الكابتن نورمان باحتلال الدفاع الدائروي ووزَّع رشاشاته على كامل نطاق الدفاع.

٢- وضع الفرسان في الوسط لزجِّهم في المعركة، وللقيام بالهجمات المعاكسة عند الحاجة.

٣- قامت عيون الثوار الاستطلاعية بتقدير حجم القوات المعادية، ومنطقةِ تحشُّدِه، وتمَّ إِبلاغ قيادة الثوار بذلك.

٤- انطلق الثوار من منطقة تحشدهم يتسابقون للوصول إِلى أَرض المعركة، وبيارقهم تخفق فوق رؤوسهم، وقد اختاروا توقيتاً مفاجئاً للعدو، وهو الساعة ١٤:٣٠ أي وقت الغداء، وحدِّدت خطة المعركة بحيث تهاجم المشاة من الجنوب، والشرق، ويهاجم الفرسان من الشمال والغرب، واندفع الثوار من الحركة باقتحام المواقع الفرنسية التي قاومتهم بشراسة، إِلا أَن شجاعتهم واستبسالهم أَدى إِلى اختراق الدفاع المعادي، والقضاء على الحملة قضاءً مبرماً، بحيث لم ينج منها سوى أَفراد لم يتجاوزوا أَصابع اليد الواحدة، فكانت مذبحة لم تستغرق النصف ساعة باعتراف المؤرخين الفرنسيين أَنفسهم.

تحليل المعركة:

الفرنسيون: - لقد وضع القائد الفرنسي، وكما يقولون (كل البيض في سلة واحدة) فاعتمد فقط على الطبيعة

الصخرية المحصنة، وكذلك على الغزارة النارية لرشاشاته، ولكنه قيَّد حركة المناورة لفرسانه بأَن حشَّدهم في ذات المنطقة الصعبة، التي لا تسمح لهم بحرية الحركة، ولم تقدم لهم المتسع من الأَرض للتفاعل مع معطيات القتال المستجدة.

- استخفاف القائد الفرنسي بقدرات الثوار، وبأنهم لن يبادؤوه القتال ويبدو أنه لم يدرس جيداً تاريخ ثوار جبل العرب.

- كان الاستطلاع الفرنسي معدوماً، لذلك تمت مفاجأَة الثوار له.

الثوّار: - الاستطلاع الجيد للقوات المعادية، ومعرفة مكان تموضع العدو، وحجم القوات، مكَّنهم من اتخاذ القرار الصحيح، والخطة السليمة للقتال.

- التحشد السريع، واختيار الوقت المناسب، والهجوم الصاعق، والحاسم، والجريء، والالتحام بالعدو أبطل فاعلية جزء كبير من قوة نيرانه.

- المعرفة الدقيقة للأَرض، ومحاور التقدم مكَّنهم الوصول بسرعة، وتحقيق المفاجأَة.

خسائر الثوار: ٤٠ شهيداً، منهم مصطفى شقيق القائد سلطان الأَطرش.

معركة المزرعة:

يقول عنها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من خطبة له في حلب: (إنها أَروع معارك العرب ضد الاستعمار في العصر الحديث).

مدخل: سرى نبأ انتصار الثوار في معركة الكفر سريان النار في الهشيم في مختلف أَنحاء سوريا، فتداعى أَحرار الوطن للوقوف مع الثورة، وبدأت المراسلات، والاجتماعات لمؤازرتها، وقرَّر الثوار في اجتماع نبع قرّاصة متابعة الثورة، والوقوف في وجه الجيش الفرنسي المتقدم لدخول مدينة السويداء، وكان ذلك في٢٥تموز/يوليو من عام ١٩٢٥م واعتبار الثوار المتواجدين نواة الجيش الوطني السوري ومن مقرراته أيضاً الأَخذ بتقاليد الجبل في الحرب واعتبار بيرق كل قرية وحدة حربية، يؤَمِّن كل محارب فيها، وعلى نفقته الخاصة سلاحه، وذخيرته، وطعامه وأَن تكون كل وحدة مقاتلة مرتبطة بقيادة الثورة مباشرة وفتح جبهة قتال

تمتد على جانبي طريق إِزرع السويداء من قرية تعارة، وقرّاصة شمالاً، حتى قرية الدور، وسميع جنوباً.

بدأَت بيارق القرى تتوافد على مكان الاجتماع من مختلف أَنحاء جبل العرب، وانضم إِليهم عدد من بدو المساعيد، وبدو السردية، وكانت فرنسا قد أَفرجت عن عبد الغفار الأَطرش، وأَرسلته للتفاوض مع قيادة الثوار بعد ما جعلته يشاهد الحشود الفرنسية الهائلة من دبابات، ومصفَّحات، ورشاشات، وفرسان، بالإضافة لقوات المشاة، وجميعها مدعومة بالطيران الذي كان لاينفك يحلّق في الأَجواء في منطقة إِزرع. وعندما تكلَّم الرسول واصفاً ماشاهده بالحشود الهائلة التي لاقبل للثوار بمواجهتها، أَجابه قائد الثورة قائلاً أَمام جماهير الثوار المحتشدة، وبصوت جهوري: (نحن يا عَمْ لن نرضخ لشروط الفرنسيين، وإِذا دخلوا بلادنا دون مقاومة فلن نلقى منهم إلا الهوان، وفي هذه الحالة الموت أَرحم. إِننا نعلن الثورة لنصون العرض، والكرامة ونحقق بحد السيف حرية الوطن). وهنا تعالت النخوات، وهتافات الحرية.

معركة بصر الحرير:

التاريخ: ليل ٣٠ – ٣١ تموز/يوليو عام ١٩٢٥م.

قوام العدو: رهط الحراسة القتالية الذي دفعه الجنرال ميشو أَمام القوى الرئيسية الفرنسية.

القائد: العقيد لوينيه.

قوام رهط الحراسة: لواء مشاة من ضمنه كتيبة فرسان وقائد اللواء المقدم (غابل) وكتيبة مشاة سنغالية قائدها النقيب (لوغاي) وكتيبة رشاشات قائدها النقيب (غرادري) ومفرزة مصفحات، والقائد الملازم (غاسكه).

مهمة رهط الحراسة:

١- استطلاع محور التحرك إِزرع ـ السويداء، وتأمين القوات الرئيسية من أَية هجمات للثوار.

٢- احتلال الجسر جنوب بصر الحرير، خشية تفجيره من قبل الثوار.

سير المعركة: عند وصول رهط الحراسة إِلى منطقة الجسر عند حلول الظلام، اتخذ الفرنسيون الدفاع على شكل مربّع، وما أَن أَزفَّت الساعة منتصف الليل، وكان شديد الوطأة على كتيبة المقدم غابل في الشمال،

والشرق، فساندتها المصفحات ودعّمت الكتيبة أَيضاً بسرية رشاشات بقيادة الملازم ديجو، والملازم سيكالدي، وعند الفجر زادت حدة هجمات الثوار، وكان ينهال من إِحدى الأَكمات نيران عظيمة على الفرنسيين، فسقط العديد من رماة الرشاشات، وقتل قائد السرية الملازم ديجو وعند الساعة الحادية عشرة قبيل الظهر انقض حوالي ١٠٠ فارس من الثوار بالسيوف، إِلا أن قلة عدد الثوار ونيران الرشاشات الكثيفة أَرغمتهم على التراجع مختفين خلف الصخور، وانتهى القتال عند ظهيرة ذلك اليوم.

خسائر الفرنسيين: ٤ ضباط منهم النقيب غرادري، و٢٠٠ جندي.

خسائر الثوار: ١٦ شهيداً، و٤٠ جريحاً.

تحليل المعركة: لقد دفعت قيادة الثورة بمفارز من الخيالة، والمشاة، بمهمة تنفيذ الاستطلاع القتالي وتنفيذ الكمائن، والإِغارات لتكبيد العدو الخسائر قبل المعركة الرئيسية، ولشل عزيمة الفرنسيين القتالية، والتأثير على معنوياتهم.

يقول الجنرال (أَندريا) في مذكراته عن تلك المعركة:

(كانت ساعة قاسية، سوداء تلك التي تخلّلت يومي الثاني، والثالث من شهر آب، بل إِنها كانت مقدمة بائسة لمعركة المزرعة).

تابعت القوات الفرنسية تقدمها من إِزرع، وبصر الحرير باتجاه السويداء في ١ آب/أغسطس ١٩٢٥م، وعلى يمين ويسار الطريق، ولمسافة عدة كيلو مترات، كانت المدفعية والطيران تقصفان تجمعات الثوار، وعندما وصلت مقدمة الحملة قرية الدور هاجمها الثوار من جديد، وهنا كان الفرنسيون ينصبون كميناً محكماً للثوار عند تل الخروف غرب الطريق العام، حيث هاجم فرسان الفرنسيين (السباهيين) الثوار، ومن ثم اسنحبوا أَمامهم متظاهرين بالهزيمة حتى خلف المكان الذي تخندقت به الرشاشات الفرنسية مختفية بالأَرض، وفوجىء الثوار بالرصاص الغزير في وجوهم، فسقط منهم على الفور ٣٠ شهيداً دفعة واحدة، لقد كان فخاً مُحكماً.

بعد هذا الكمين فتحت ثغرة في جناح الثوار الأَيمن مما اضطر الثوار إِلى الانسحاب إِلى خط دفاعي ثانٍ، وعندما

وصلوا نبع الفارعة عند المغيب، كان الجوع والتعب والحزن قد أَنهكهم، فانتقل سلطان باشا الأَطرش مع مجموعة صغيرة من رفاقه ماراً بقرية سليم، ويقول قائد الثورة في مذكراته: (دعانا، وبإصرار الشيخ يوسف مسعود إِلى مضافته لتناول طعام العشاء، قدمت طائرتان وقصفتا القرية لأَنهم علموا بوجودي فيها، وبينما كنا نتناول الطعام سمعنا جلبة خيول تدخل القرية وصيحات فرسان تقول: البشرى لنا لقد هاجم الثوار المقرن الغربي، ونجران مؤخرة الجيش الفرنسي، وفتكوا بهم، واستولوا على كمية كبيرة من الأسلحة، والذخائر وحرقوا عدداً من الآليات، وثلاث مصفحات).

ويروى عن بطولة المرأة، أَن زوجة المجاهد عباس أَبو عاصي قالت عندما قدَّمت الطعام للثوار: ((من يريد العودة إِلى المعركة "يتفضَّل على الزاد" أَما من لايريد فلا طعام له، وهذه المضافة لا تتشرَّف بوجوده فيها)). سرت أَنباء النصر الجديد ودبَّ الحماس في قلوب المقاومين، وأَرسل قائد الثورة الرُسُل لِتَجَمُّع الثوار عند نبع الفارعة جنوبي نبع المزرعة بـ٥كم قبيل فجر٣ آب ١٩٢٥م.

معركة المزرعة الرئيسية:

يقول الجنرال أَندريا في كتابه ثورة الدروز، وتمرُّد دمشق: (إنَّها لمعركة حزينة حقاً، تجلب الهمَّ والضيق، وهي شهادة على المصيبة التي حلَّت بنا، إِن شرايين القلب لتتقطع بأَلم شديد وسط هذا الحطام وبين البقايا البشرية المتكومة، هنا عربات مقلوبة ومصفحات، ودبابات محروقة).

- لقدر زار صحفيان أَلمانيان، كانا ضابطين في الجيش الأَلماني، أَرض المعركة، وبعد نشوبها بأَيام قليلة فصرَّحا بعد عودتهما إِلى السويداء: (إِن ظفر ثوار الجبل ومصرع الأُلوف من الجيش الفرنسي بأسلحة بدائية استخدمها الثوار، أَمر لا مثيل له في الثوارت التي نشبت في مختلف أَرجاء العالم ضد الجيوش النظامية).

ويقول الدكتور الشهبندر في مذكَّراته: (لقد سِرتُ في أَرض المعركة بعد يوم من وقوعها، ولمدة ثلاث ساعات أَي ١٥كم، وأَذهلني ما رأيت، لقد كانت جثث القتلى كأكوام الصخور، بالإضافة للخراب الهائل في الأَسلحة

والمعدات المدمَّرة، ذلك شاهد على الشجاعة، والبطولة النادرة للثورة).

تاريخ المعركة الرئيسية في المزرعة: فجر ٣ آب ١٩٢٥م.

قائد القوات الفرنسية: الجنرال ميشو.

قوام الحملة: فرقة مشاة معزَّزة، حوالي ١٢٠٠٠ مقاتل مدعومة بسربَي طيران، وتعدادها حسب الوثائق الفرنسية:

- ٣ أَلوية مشاة.
- فيلق خيّالة (٤كوكبات) والكوكبة ١٥٠ فارساً.
- سرية دبابات عدد ٢ (٢٠ دبابة).
- بطارية مدفعية عدد ٢ : بطارية عيار ٧٥ملم، وبطارية عيار ٦٥ملم مع مدفع ١٠٥ملم عدد٢.
- سرية إشارة (اتصالات) ورتل شؤون إِدارية (لوجستي)، ذخيرة، طعام، مياه، وسرية طبية... إلخ بالإضافة إلى قفل فنِّي (إِصلاح آليات، ومعدات).

هدف الحملة:

- إِعادة احتلال الجبل، وسحق الثورة، وفرض الأَحكام العرفية.

- فك الحصار عن الحامية الفرنسية المطوَّقة قي قلعة السويداء.

- إِعادة الهيبة لفرنسا بعد الهزائم المريرة التي حلَّت بقواتها.

قوام الثوار في مجمل عملياتهم على طول محور التحرك وأَثناء المعركة الرئيسية:

- فرسان: حوالي ١٥٠٠ فارس.

- مشاة: حوالي ٢٠٠٠ مقاتل.

منطقة تحشد الثوار في المعركة الرئيسية: نبع الفارعة، ١٠كم شمال مدينة السويداء.

سير المعركة الرئيسية في منطقة نبع المزرعة:

- تابع الجنرال ميشو تقدمه، واحتل الدفاع الدائروي في منطقة المزرعة ليل٢ - ٣ آب/أغسطس ١٩٢٥م.

- ليل ٣/٢ آب هاجم الثوار مؤخرة القوات الفرنسية ودمروها عند وصولها إِلى منطقة تدعى (رُقَّة الصقر).

- في ليل الثالث من آب، تابعت القوى الرئيسية للثوار تجمعها، وبدأت تتقرَّب بكل هدوء من خطوط تمركز

القوات الفرنسية، رغم شُهُب الإِنارة، وقذائف الإِضاءة المستعمرة التي تطلقها المدفعية الفرنسية لأَرض المعركة بل كان الثوار يستفيدون من هذه الإِنارة لتحسين مواقعهم.

- في فجر الثالث من آب، وبينما القوات الفرنسية تتأَهَّب لمتابعة تقدمها إِلى السويداء، انقض الثوار عليها بهجوم صاعق، ومدمر، وهم يقاتلون بما تيسر لهم من أَسلحة نارية، وأَسلحة بيضاء، وحتى مناجل الحصاد.

التحموا بالفرنسيين وجهاً لوجه، فاقتحموا مواقع الرشاشات، وقتلوا سدنة الدبابات، والمصفحات وقلبوها ثم أَشعلوا النيران فيها، وتساقط العدو أَكواماً، وسدَّت المسالك على الدبابات، والآليات، وعند المساء فقد الجنرال ميشو السيطرة تماماً على قواته، وسقط عن ظهر جواده جريحاً، وأُنقذ بأعجوبة محمولاً على ظهر دبابة نجحت هي الأُخرى بمعجزة. دُمِّرت الفرقة الفرنسية تدميراً كاملاً، وفرَّ من استطاع الفرار، وأَسر الثوار عدداً كبيراً من الأَسرى من مختلف الرتب. ويقول الجنرال أَندريا في مذكراته، المترجم حافظ أَبو مصلح الصفحة

٧٨: (لقد أعلمنا بعض الضباط الذين نجوا من المعركة، أَن الانسحاب انقلب إِلى هزيمة مروِّعة بل قال بعضهم أنها مذبحة، وأَن الرعب دبَّ في الوحدات، وأَن عدداً كبيراً من الجنود، وصف الضباط، والضباط قتلوا وأَن غنائم حربية هائلة غنمها الدروز، كالمدافع مثلاً فانقلبت هذه العملية إِلى كارثة، وهزيمة ذات حمل ثقيل، وضربة قاسية لنفوذنا ، واحترامنا).

- تابع الثوار سحقهم لحملة ميشو، ولاحقوا فلولها حتى سهول حوران.

الخسائر: ـ تقدَّر خسائر الفرنسيين في هذه المعركة بـ ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ قتيل، وعدد كبير من الأَسرى الذين عوملوا بكل إِنسانية، ولقد نوَّهت الصحف الفرنسية مشيدة بتلك المعاملة الكريمة، بالإِضافة إلى ٩٠٪ من أَسلحة، وعتاد العدو.

- خسائر الثوار: ٣٥٠ شهيداً، وعشرات الجرحى.

يقول القائد العام للثورة السورية الكبرى في مذكراته:

(لقد أَبدى جنود الحملة الفرنسية، وبشكل خاص الفرسان السباهيون بطولة رائعة في مواجهة الثوار والثبات في مواقعهم حتى نازلهم فرساننا بالسلاح الأَبيض).

ويروي سلامة عبيد في كتابه صفحة ١٣٦ هذه النادرة:

(اقترب الثائر هاني الحلبي من إِحدى المصفَّحات، وبيده سيفه، وكان سائقها يطل برأسه من فتحتها لكشف الطريق، فعاجله الثائر بضربة من سيفه أَطارت رأَسه، ويده معاً، والتفت إِليه قريبه الثائر عبد الكريم الحلبي الذي كان بجانبه مازحاً: "هيك ياعم عوَّرت الرجل").

وعن الشهيد سليمان العقباني، يقول الدكتور الشهبندر من خطبة له في حلب: (لقد كان حوله ثمانية عشر جندياً جندلهم بضربات سيفه. ضربته السريعة، الهائلة تفلق الجسد من الكتف، وحتى الخاصرة، إِنني أُقدِّر قوَّة ضربته بقوَّة (أُتوموبيل) أَي سيارة).

بعد الانتصار الرائع للثوار في موقعة المزرعة، شدَّدوا من حصارهم على الحامية الفرنسية المتواجدة هي قلعة السويداء،وأَسقطوا العديد من الطائرات الفرنسية بنيران بنادقهم، والتي كانت تأتي لرمي المؤن للمحاصرين،

واستخدم الثوار المدافع الخمسة التي غنموها في معركة المزرعة للرمي عل القلعة وتحصيناتها، بعد أَن قام بإصلاح المعطل منها العقيد فؤاد سليم، ولم تستطع الطائرات الفرنسية كشفها نتيجة التمويه الجيد.

سارع القائد العام للثورة السورية بإِرسال الرسائل إِلى دمشق خاطب فيها قادة الوطن، وزعماءه، ومنهم على سبيل المثال، لا الحصر، الدكتور الشهبندر، ونسيب البكري، وذكَّرهم بالاتصالات السابقة، ووجوب المشاركة بالثورة، والنزول إِلى الميدان، وكان من الموقعين على هذه الرسائل القائد محمد عز الدين الحلبي، وجاد الله الأَطرش.

جاء في مذكرات قائد الثورة - الحلقة التاسعة:

(قبل أَن تجف دماء الآلاف من الجنود الفرنسيين القتلى، طلبت فرنسا الهدنة بوفدها المؤلف من الكابتن رينو، ويوسف الشدياق، وعبد الله النجار مدير المعارف في الجبل، وتم اللقاء في قرية الثعلة، ولقد قرَّرنا رفض الشروط الفرنسية، حيث طلبوا:

١- دخول الجبل من جديد.

٢- تسليم الأَسلحة التي غنمها الثوار.

٣- دفع غرامة ٥٠٠٠ آلاف ليرة ذهبية.)

وقد صرَّح قائد الثورة لصحفيين أَلمانيين عن رأيه في المفاوضات فقال: (إِن الفرنسيين لا يسعون إِلى الصلح إِنهم يريدون إِلهاءنا، ريثما تصل قوات جديدة لهم ونحن لن نرضى إِلا باستقلال سوريا الكامل، ووحدة أَراضيها).

معركة العادلية:

التاريخ: ٢٤ آب/أغسطس ١٩٢٥م.

أَحداث ما قبل المعركة: وصل إِلى الجبل مابين ١٥و١٧ آب عدد من الوفود الرافضة للصلح. منهم الشيخ محمد الأَشمر يحمل كتاباً من بدر الحسني يدعو للثورة بالنصر، ووصل إِلى قرية الثعلة غرب السويداء بـ ٥ كم حديثة الخريشا على رأس قوّة عددها ١٠٠ فارس من بني صخر في الأُردن للاشتراك بالثورة بتشجيع من السيد رضا الركابي رئيس الحكومة الأردنية وجاء إِلى معسكر الثوار في المزرعة اسماعيل الترك (الحريري) من حوران مع عدد من الفرسان، وفي ١٦ آب وصل أَسعد البكري من دمشق،

وزكي الدروبي، ومعهم توفيق الحلبي من الجبل، وأَعلنوا تأييد الثورة، وقد تم الاتفاق لقيام حملة مشتركة من ثوار الجبل، ودمشق، ويكون اللقاء في قرية العادلية قرب الكسوة جنوبي دمشق بـ٢٠ كم، وتاريخ التجمُّع ٢٤ آب ١٩٢٥م، وتكون مهمة حملة الثوار دخول دمشق وتحريرها من الفرنسيين وإعلان حكومة الثورة، وبلغ مجموع من تحشد من الثوار في الجبل ٧٠٠٠ فارس فيهم ١٠٠ فارس من بني صخر بقيادة عرقوب الخريشا، ومثقال الفايز، وفريق من قبائل المساعيد، والحسن بقيادة عودة السرور، ومطر العدواني بالإِضافة إِلى ثوار الجبل، وعندما وصلت الحملة قرب الكسوة، فوجئت بقوات فرنسية ضخمة تحتل الدفاع وانهالت قذائف المدفعية، وقصف الطيران المركز على الثوار، وفي أَرض سهلية مكشوفة. صمد الثوار في البداية إِلا أَن كثافة النيران، والمفاجأَة التي لم يتوقعها الثوار في منطقة لا تقدم لهم أَية حماية اضطرتهم للتراجع بعد خسائر كبيرة وقعت بين صفوفهم، وبلغ عدد الشهداء ٧٠ شهيداً، والجرحى ناهز ٢٠٠ جريح، وجدير بي أَن أَذكر أَن جدِّي يوسف الحمد، كان أَحد أُولئك الجرحى. والجدير بالذكر أَيضاً أَنَّ الجنرال (سولّه)

والكابتن (دوكوتيل) أُصيبا بجراح عندما اصطدما بكوكبة من ثوار مقرن (قضاء) اللِّواء في جبل العرب، وكان ذلك قرب قرية مرجانة من ريف دمشق.

خسائر الفرنسيين: غير معروفة نتيجة للموقف الناشىء.

تحليل المعركة:

١- لقد استطاع عملاءُ الفرنسيين ورصَّادهم، كشف نية الثوار،وهدفهم، ومحور تحركاتهم، وتأَهبوا لضربهم وإِفشال مخطّطهم.

٢- حجم قوة الثوار، وتحركهم في مناطق سهلية ومفتوحة، وفي وضح النهار، وضعف استطلاعهم،أَدى إِلى مفاجأَتهم.

٣- عدم خبرة، ودراية الثوار الجدد الذين انضموا إِلى ثوار الجبل، بطرق، وأَساليب قتال العدو، وعدم انضباطهم، وتقيدهم بالأَوامر، والتعليمات التي أُعطيت من قيادة الثوار، ولأَن العديد منهم لم يخض معركة ولم يألف وقع نيران الأَسلحة الحديثة كالمدفعية، والطيران أَدى إِلى عدم صمود العديد منهم في القتال.

٤- تحرك كتلة الثوار الرئيسية على محور واحد للوصول إِلى الهدف، أَدى إِلى سهولة التعامل معها من قبل العدو، وتركيز نيران المدفعية، والطيران عليها.

مؤتمر ريمة اللُّحف:

التاريخ: أَوائل شهر أَيلول/سبتمبر ١٩٢٥م.

وصل إِلى الجبل كما يذكر القائد العام للثورة السورية، قادة الحركة الوطنية وهم: د. عبد الرحمن الشهبندر، شكري القوتلي، نسيب وشكيب البكري، نزيه وسعد الدين المؤيد العظم، سعيد العاص، فوزي القاوقجي، سعيد الترمانيني، زكي الدروبي، منير الريِّس، جميل العلواني، ومن إِقليم البلان: الأَمير عادل أَرسلان، شكيب وهاب، خطَّار أَبو هرموش وسُمِّي سلطان قائداً عاماً للثورة، والدكتور الشهبندر مديراً للشؤون السياسية، والناطق باسمها، وبدأَت قيادة الثورة إِعطاء أَهمية أَكبر لاستطلاع العدو، وجمع المعلومات عنه، وخاصة بعد ماجرى في معركة العادلية، والقيام بالحرب النفسية، والإِعلامية، ولكن بجهود، وإِمكانيات الثورة المتواضعة،

وكان ضرب الفرنسيين، ودحرهم، هو الدعاية الكبرى للثورة، ورفع الروح المعنوية للمواطنين.

صدر عن المؤتمر البيان رقم ١، ونشرت الصحف العربية هذا البيان، وفي فرنسا لم تنشره سوى صحيفة (لومانتيه) الناطقة باسم الحزب الشيوعي الفرنسي.

مقتطفات مما جاء في هذا البيان الذي وزِّع على الصحف بتاريخ ٢٣ أَيلول من عام١٩٢٥م:

(أَيها العرب السوريون: إِن الحق يؤخذ، ولا يعطى فلنأخذ حقنا بحد السيوف، ولنطلب الموت، توهب لنا الحياة... إِن حربنا اليوم هي حرب مقدَّسة، ومطالبنا هي:

أولاً: وحدة البلاد السورية ساحلها، وداخلها والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة، مستقلة استقلالاً تاماً.

ثانياً: قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أَساسي على مبدأ سيادة الأُمة سيادة مطلقة.

ثالثاً: سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش وطني لصيانة منعة البلاد.

رابعاً تأييد مبادىء الثورة الفرنسية، وحقوق الإنسان في الحرية، والإِخاء، والمساواة.

إِلى السلاح، والله معنا، ولتحيا سورية حرة، مستقلة).

معركة المسيفرة:

التاريخ: ٢٢ أَيلول/سبتمبر ١٩٢٥م.

مدخل: تعد من أَكبر المعارك التي خاضها ثوار جبل العرب ضد الاستعمار الفرنسي، وأَشرسها، وهي فخر للثوار، برغم الفشل الذي لحقهم، ولولا الطلقة الخائنة والعميلة، التي نبَّهت العدو، لتغيُّر وجه الثورة ومسارها نحو النصر الكامل.

منطقة تحشُّد القوات الفرنسية: قرية المسيفرة في محافظة حوران، وجنوب غرب السويداء بـ ٢٥كم.

قوام القوات الفرنسية بقيادة الجنرال (غاملان):

١ - اللواء الخامس من الفيلق الأَجنبي الرابع.

٢ - ٦ أَلوية من الرماة الإفريقيين.

٣ - لواء من الرماة السنغاليين.

٤ - الخيالة بأُمرة الكولونيل (ماسيت) وتعدادهم:

٥ كوكبات من فيلق السباهيين وكوكبة شركسية بقيادة اليوتنان (كولييه).

٥ - كتيبة دبابات وسرية مصفَّحات.

٦ - المدفعية: بطارية عيار ٧٥ملم عدد ٢ (البطارية ٤ مدافع).

٧ - بطارية عيار ٦٥ ملم عدد ٢.

٨ - شعبة فنية هندسية.

٩ - قافلة ذخيرة بأُمرة الكولونيل (كورنيه) تحمل:

١٦طن من الخرطوش و٢٤ طن ذخائر مدفعية ودبابات و٣٠٠طن مؤونة و١٨ طن ماء و٥ طن وقود.

١٠- سرية طبية.

مجموع القوات: ٢٥ ألف جندي، وضابط.

استقدمت فرنسا من مختلف بقاع مستعمراتها، وحشدت قواتها في منطقة المسيفرة، حيث أَعدَّ الجنرال غاملان قواته لاحتلال الجبل، وسحق الثورة من جبهة الغرب حيث الأَرض أَكثر سهولة، وأَقل وعورة مستفيداً من أَخطاء غيره، وبدأَت الطائرات تقصف السويداء وقرى وبلدات

الجبل. تحصنت القوات الفرنسية في منطقة المسيفرة للقيام بإجراءات تنظيم المعركة، من استطلاع ، وخطط وقرارات وتوزيع مهام القوات، وأَهدافها.

ويقول الضابط الفرنسي (دوتي) في كتابه الذي يحمل عنوانه (الفرقة الجهنمية):

(لقد كان عرض الأَسلاك الشائكة حول منطقة تمركزنا في منطقة، وقرية المسيفرة ٣م، وجعلنا عرضه٦م ، أَمام الجدران، والمتاريس التي قمنا ببنائها داخل البلدة وخارجها، وكانت قيادة الجنرال في وسط البلدة، وقد قام المهندسون بتحصين مقره، فأَصبح أَشبه بقلعة.

كنا ننام، وبنادقنا مشدودة في أَيدينا ، حيث كان الدروز بارعين في التسلل إِلى جنودنا ليلاً، وذبحهم وأَخذ سلاحهم، بل كنا ننام أَحياناً فوق سلاحنا).

ويتابع الضابط الفرنسي وصفه للمعركة:

(في ليلة المعركة سمعنا صوت تدحرج حجارة، فوثبنا إِلى متاريسنا، ثم سمعنا صوت طلقة نارية. عندها أَضاءت قواتنا الأَرض أَمامنا بالقنابل المضيئة، والشهب، فرأَينا

أَشباحاً تزحف متقدمة بصمت، وعندها اشتعلت الأَرض والسماء بالنيران، وما كاد ضوء الفجر يفضح جموعهم حتى انفجروا بهتافات وحشية، وهم يدمدمون... يا اللّه يا اللّه، وكان المشهد أَمامنا مخيفاً، بل مرعباً... مشاة الدروز في الأَمام، وخلفهم الفرسان، والبيارق الحمراء تخفق فوق رؤوسهم، وبرغم نيراننا التي تحصدهم... كانوا يندفعون هازجين، وكأنهم ليسوا بشراً... يتقدمون ويتقدمون، ويموتون فوق متاريسنا... ورأيت بأم عيني شيخاً طويل اللحية، أشعث الشعر يهاجم رشاشاتنا وهو أعزل من السلاح، وسقط قتيلاً فوق الأسلاك الشائكة وأصابعه تنغرز فيها... لقد أحصينا في جسده بعد نهاية المعركة ثلاثين طلقة... بعد أن تهّشم دماغه، وتطاير فوق الأسلاك.

كانوا كالإعصار موجة إثر موجة، واستطاعوا رغم نيراننا المهلكة وتحصيناتنا القوية اختراق صفوفنا، ووصلوا إلى داخل البلدة وركّزوا أعلامهم فوق أسطحة منازلها.

إلا أن النجدات وصلت لدعمنا، فاضطر الثوار للانسحاب... ما أدهشني بعد المعركة هو عدد قتلاهم لقد كانت أَجسادهم التي مزقتها القنابل، وآلاف الطلقات تملأُ الأَرض... أَمرنا الأَسرى من الثوار، وبعض رجال قرية المسيفرة الذين ثبت تعاونهم مع الثوار بجمع تلك الجثث، وصببنا عليها البترول وأشعلنا بها النار، ومن ثم تم إِعدام الأَسرى، والمتعاونين).

الخسائر عند الفرنسيين: رغم التحصينات الفرنسية واتخاذهم لموقف الدفاع، ومفاجأَة الثوار، إلا أَن خسائر كبيرة وقعت في القوات الاستعمارية، غير معروفة العدد وهذا ما أكده الفرنسيون في بلاغاتهم العسكرية، وأَكده الثوار، وخاصة أُولئك الذين اخترقوا التحصينات الفرنسية، وقاتلوهم من داخل البلدة حتى حلول الظلام قبل أَن ينسحبوا ويلتحقوا برفاقهم. وعن تلك الخسائر يقول أَندريا في كتابه؛ ثورة الدروز، وتمرد دمشق: (في ليلة ٢٢ على ٢٣ أَيلول سنة ١٩٢٥م هاجم الدروز الجيش في المسيفرة، ورغم نيراننا الهائلة، إِلا أَنهم استطاعوا إِبادة فرقة بكاملها).

خسائر الثوار: حوالي ٥٠٠ شهيد ومئات الجرحى.

تحليل المعركة:

الفرنسيون: ١- قرار القائد الفرنسي بمهاجمة الجبل من منطقة أُقل وعورة، تسمح لقواته بالانتشار، واتخاذ ترتيب قتال يُمكِّنه من استخدام القوات، ووسائط النيران بقدرات أشمل، وأَكثر فاعلية.

٢- اتجاه تقدم قواته تسمح له سرعة الوصول إِلى عاصمة الجبل، والمناطق الأَكثر تأثيراً على الثورة، ومن محاور متعددة.

٣- ابتعاده عن منطقة اللَّجاة، التي تكشف جنبات قواته، وتفرض عليه التحرك برتل واحد، مع صعوبة تأمين حراسة القوات.

٤- تحشُّد قواته، وقراره في الدفاع المحصن، على مقربة من جبل يسمحان له بالعمل في الوقت، والظرف المناسبين. واستطلاع أَماكن تجمعات الثوار، وتحركاتهم والتنبؤ بقرارتهم.

الثوار: ١- إِنَّ قرار الثوار باتخاذ المبادأة، ومهاجمة القوات الفرنسية، وسحق أَكبر عدد منها في أَماكن تحشدها،

قبل قيامها بالانتشار، والبدء في الهجوم وهي على ما هي من الحجم، والقوة، كان قراراً صائباً لولا ذلك الخائن الذي قدَّم المعلومات المؤكدة والدقيقة عن موعد هجوم الثوار، واتجاه تقدمهم. والذي سمح للمستعمرين باتخاذ الترتيبات الدفاعية الملائمة لتدمير هجومهم.

٢- عدم حرص قيادة الثورة على سرية قرار الهجوم وساعته، وحصر ذلك في أَقل عدد ممكن من القادة.

٣- لم يقم الثوار بالمناورة، والالتفاف، معتمدين فقط على عنصر المباغتة، وتنفيذ الهجوم الجبهي.

بدأَ الجيش الفرنسي زحفه في ٢٣ أَيلول/سبتمبر ١٩٢٥م معتقداً أَن عزيمة الثوار تحطمت بعد معركة المسيفرة وقام الثوار بمحاولات صَدِّه، وتمكنوا من إِيقاع خسائر كبيرة في صفوفه، ورغم كثافة رمايات المدفعية، والطيران إِلا أَنه لم يستطع دخول مدينة السويداء إِلا بعد ثلاثة أَيام من بدء هجومه، أَي في ٢٦ أَيلول.

سارع الثوار بمحاصرة القوات الفرنسية التي دخلت المدينة الخالية من السكان، وقطع مياه (عين القينة) عنها، فاضطر الجنرال غاملان إلى الانسحاب مجدداً إلى

المسيفرة، مفترضاً أَن الثوار سيهاجموه فيها، إلا أن الثوار لم ينخدعوا بذلك.

عاود الجنرال الفرنسي هجومه من جديد، واحتل قرية خربا جنوب غرب السويداء بـ ٢٥كم، وأَحرقها لأَنّ سكانها المسيحيين، وعلى رأسهم الثائر عقلة القطامي تعاونوا مع الثوار. تابع تقدمه ووصل قرية المجيمر في الجبل، ٢٠كم جنوب غرب السويداء، واحتل تل الحبس، وبعد تمهيد قوي بالمدفعية، والطيران، احتل بلدة عِرى، ثم تابعت الحملة زحفها نحو السويداء ودخلت قرية رساس، وبرفقتها حمد الأَطرش الذي خلعه قائد الثورة من صفوفها، لتعاونه مع المستعمرين.

معركة رساس:

دخلت الحملة قرية رساس عنوة، لكن الثوار بمشاتهم وفرسانهم، أَحاطوا بها من كل جانب، ودارت معارك رهيبة استمرت لمدة ثلاثة أَيام، تكبد فيها الفرنسيون خسائر فادحة، وأسقطوا طائرتين، مما أَجبرهم على

الانسحاب باتجاه تل الحديد[1]، حيث مني العدو بهزيمة أخرى، ولاحق المجاهدون جنوده حتى المزرعة، حيث نام الجنود بين حطام الدبابات، والآليات، وبقايا الجثث الفرنسية، (مُذكّرات د. شهبندر). كانت جثث قتلى جيش غاملان البطاح من رساس حتى المزرعة. وكل ما استطاع غاملان أَن يفعله، هو إِنقاذ حامية قلعة السويداء المحاصرة، عندما دخلها ومن ثم انسحب منها كما جاء سابقاً،فاعتبر ذلك نصراً كبيراً له، وأَقام الفرنسيون الاحتفالات في دمشق وبيروت، وباريس حيث زعم الفرنسيون أَن هدف الحملة تحرير الحامية فقط.

يقول القائد العام للثورة سلطان الأطرش في مذكراته:

(في غضون شهر أَيلول أَفضينا إلى الضابط العربي رمضان شلاش في بادية تدمر بمهمة إِشعال الثورة، وتعهد بالتعاون مع قادة الثورة في القلمون، والغوطة، وكذلك تعهد حسن طعان الدندشي في منطقة تل كلخ، ومع السيد توفيق هولو جعفر في نشرها في الهرمل، والمناطق المجاورة.

---

[1] تل الحديد: يقع غرب مدينة السويداء ـ ٣ كم عنها.

معركة الزور الأُولى:

توافد عدد من فرسان الجبل، وثوار دمشق نحو الغوطة إلى موقع الزور، ويعرف منهم الشيخ عرب الخيمي وعبد الوهاب الرجولة، ونديم شهاب، ومنير الطحان، وحسن المبقعة، ومحمد الخطيب، وأبو صلاح الهجا، وشفيق السكري، والتحق بهم عدد من ثوار جرمانا، وفريق من شباب حي العمارة في دمشق، وفلاحو جوبر، وأرسل الفرنسيون فصيلاً من الدرك يقدر بمئة خيال، وقد تحاشى ضباط الدرك السوريون الاصطدام بالثوار فهاجمهم الثوار، واعتقلوهم. أُرسل الضباط إلى قائد الثورة سلطان، وبعد التحقيق ثبت أَنهم لم يشاركوا في المعارك، فعفا عنهم. ولقد شجع هذا الأمر الثوار على دخول دمشق فيما بعد. ثم تقابل الثوار مع حملة فرنسية تقدر بحوالي الألف جندي ترافقها الدبابات، وكانت قد وصلت حملة من مجاهدي ثوار منطقة اللواء في جبل العرب، ومعهم ثوار من عشيرة الغياث،لتعزيز الثوار في الغوطة، وتم دحر الحملة الفرنسية، وأسقطوا طائرة، ثم تقدموا باتجاه الضمير، وهاجموا قوة البادية الفرنسية

واستولوا عليها قبل الفجر، وغنموا ٨٠ جملاً، وعدداً من البنادق، وكميات من الذخيرة.

هجوم الثوار على دمشق:

يذكر منير الريس في مذكراته ما يلي:

(دخل الثوار دمشق من ثلاث جهات برغم قيام الفرنسيين بتطويق المدينة بالأَسلاك الشائكة، ووضع الحراسة القوية على المداخل التي حددوها - حسب مذكرات الجنرال أَندريا- وذلك بتاريخ ١٨/١٠/١٩٢٥م.

١- سرية من ثوار جبل العرب بقيادة نسيب البكري إِلى حي الميدان، بعد الظهر.

٢- سرية مع الثائر ذيب الشيخ، من بساتين باب السلام، والعقيبة.

٣- سرية مع حسن الخراط، وعدد من ثوار جرمانا من بساتين الشاغور).

وصلت قوى الثوار إلى الأَسواق، بعد دحرها للقوات السنغالية، وعلمت أَنَّ الجنرال ساراي في قصر العظم زائراً فهاجمته، وهرب في عربة مصفَّحة، واستشهد في هذه

المواجهات عدد من الثوار عرف منهم أَبو علي كليب من جرمانا، وحسن المبقعة من ثوار دمشق، وقام الفرنسيون بقصف المدينة بنيران المدفعية، وقد احتج سفراء الدول على ذلك العمل البربري، وفي مدن الاغتراب، ونشرت الصحف مقالات التنديد.

معركة يلدا، وببيلا:

يقول منير الرِّيس في مذكراته (الكتاب الذهبي):

(لقد خضت غمار هذه المعركة... كنتُ آنذاك في قرية عقربا - من قرى ريف دمشق - عندما جاءتني رسالة من نزيه مؤيد العظم يعلمني فيها أَن الفرنسيين سيهاجمون ويطلب مني التوجه إلى قريتي يلدا، وببيلا، مقر الثوار، ويطلب مني التوجه إلى هناك مع رفاقي لنجدة الثوار، وقد توجهنا إلى قائدنا محمد عز الدين لخوض المعركة معاً برفقة الثوار، وعلى رأسهم عبد القادر سُكَّر من مجاهدي الميدان، وانضمت إِليهم القوة المتوجهة لنجدة إِقليم البلان، وأَقبل إِلينا مجاهدي جرمانا، وعقربا بالعشرات، فطوقنا الحملة الفرنسية، وكان القتال وجهاً لوجه، وحرقنا عدداً

كبيراً من الدبابات، وخسر المستعمر عدداً كبيراً من قواته يقدر بالمئات، أكثر من ٦٠٠ بين قتيل، وجريح، ودبَّت الهزيمة بين صفوفهم، فاستنجد الفرنسيون بالطائرات التي أخذت بقصفنا. انسحب الثوار، وانتهت المعركة بنصر مؤزِّر للمجاهدين).

معارك جوبر، وحمورية:

خرجت حملة فرنسية ضخمة، فكمن لها مجاهدو جوبر في مجرى نهر تورا الجاف، والبساتين المطلة على طريق دوما، ودارت معركة كبيرة لأَكثر من ساعتين، وخسرت الحملة عدداً من جنودها، إِلا أَنها استطاعت متابعة تقدمها إِلى قرية عربين، وتصدى لها المجاهدون، وعلى رأسهم أبناء عكاشة، وتابعوا قتالها حتى بلدة دوما، ودارت معركة في شوارع جوبر، انهزم على أَثرها جنود الحملة، وخرجوا من القرية، لتبدأ المدفعية الفرنسية بدكِّها، وعرف من الشهداء مصطفى الأَغواني، وفي ختام المعركة تقدَّم الثائر حسن الخراط، وقبَّل المجاهد محمد عز الدين من جبل العرب مبدياً إِعجابه بشجاعته.

جرت معارك متفرقة كمعركة الزور الثانية، ومعارك القلمون، حيث قرَّر قسم من الثوار، ومعهم عدد كبير من ثوار جبل العرب، أَن يكون مقر قيادتهم في بلدة النبك.

وكان من أَبرز القادة الأَمير عادل أَرسلان، ومحمد باشا عزالدين الحلبي.

الثورة في وادي التيم، وإقليم البلان:

بعد أن أكدت دمشق، وريفها استعدادها للثورة توجهت قوّة من جبل العرب قوامها ١٥٠٠ فارس بقيادة زيد الأَطرش شقيق سلطان القائد العام للثورة إلى قرية الخيارة في ريف دمشق، وقامت الطائرات المعادية بقصفهم، مما أَدى لوقوع عدد من القتلى، والجرحى وتابع الثوار تقدمهم، ووصلوا إلى عقربا، وببيلا حيث استقبلهم الأهلون بالترحاب، والمساعدة.

في هذه الأَثناء وصلت رسائل من إِقليم البلان في جبل الشيخ تشرح ماجرى في قرية (قلعة جندل) وتطلب نجدة الثوار، ومفادها: أَن الكابتن (كوليه) دخل القرية في ١٤ أَيلول ١٩٢٥، وطلب ٢٠٠ بندقية غرامة، واعتقل ٢٨ رجلاً

كرهائن، بحجة اشتراك عدد من شباب القرية، والتحاقهم بالثورة، ومن الإجرام الذي قام المستعمر أَنه ذبَحَ علي كليب زيتون، وأولاده الخمسة على مشهدٍ من أُمِّهم. فوصلت نجدات من القرى المجاورة، وأَرغمت المستعمرين على الانسحاب، إلا أنهم أعدموا الرهائن وفي طريق انسحابهم قاموا بنسف عدد من البيوت في قرية بقعاثا. وصل الثوار بقيادة زيد الأَطرش إلى بلدة مجدل شمس في جبل الشيخ، حيث كانوا يكمنون في النهار ويسيرون في الليل اتقاء من الطيران.

عقد الثوار اجتماعاً في منزل أَسعد كنج، وتقرر توسيع الثورة لتشمل جميع قرى الجولان، حتى وادي التيم، وحاصبيا. أَغارت الطائرات على مجدل شمس أَثناء الاجتماع، وأَسقط الثوار إِحداها، وانضم ثوار الجولان إلى قيادة الثورة.

وجَّهت قيادة الثورة قسماً من قواتها بقيادة حمزة درويش إِلى حاصبيا، وعندما علم الفرنسيون بقدومهم انسحبوا منها، فدخلها الثوار صباح ١٩٢٥/١١/١٩ وتقاطرت الوفود من راشيا، والقرى المجاورة تعلن تأييدها للثورة، واستولى

الثوار على قرى، إِبل السقي، وكوكبا، ومرجعيون، ودمروا الحاميات الفرنسية مكبدينها حوالي ٣٠٠ قتيل، وكان ذلك بتاريخ ١٩٢٥/١١/١٥م.

كانت خطة الثوار احتلال بلدة راشيا، بقلعتها المشهورة، والتي تحصنت بها قوة فرنسية كبيرة، وذلك بهدف التقدم نحو سهل البقاع، واحتلال محطة قطارات رياق لقطع الخط الحديدي بين دمشق وبيروت. زحف الثوار نحو راشيا، ووصلوها بتاريخ ١٩٢٥/١١/١٩م. تحصنت القوة الفرنسية في القلعة، بعد صدامات دامية مع رجال القرية، وشبابها. انقسم الثوار إلى أربع فرق، كل فرقة أخذت موقعها إزاء القلعة المحصنة، حيث ركز العدو في متاريسها الرشاشات وفي وسطها نصبوا مدافع الهاون. ثقب الثوار جدران المنازل المحيطة بالقلعة، وتقدموا تحت وابل من النيران، وصعدوا جدرانها بواسطة السلالم، بعد خسارتهم عدداً من الثوار، وأَصلوا الفرنسيين بنيران القنابل اليدوية وانسحب العدو، وتحصن في أَقبية القلعة، إلا أَن نيران المدفعية البعيدة، والطيران، أَجبر الثوار على الانسحاب. بعد أَن خسروا ٧٠ شهيداً، وخسر الفرنسيون نصف قوة الحامية.

وخلال معركة راشيا هاجم الفرنسيون قرية قلعة جندل، إلا أَن ما بقي من الثوار في المنطقة تصدوا لهم ودحروهم. وبعد معارك وادي التيم، تجمّع العدد الأَكبر من الثوار في قرية مجدل شمس، فقام الفرنسيون بقوام لواءين مُدَعَّمين بالدبابات، والمدفعية، والطيران بمهاجمتها، ولمرتين، إِلا أَنَّ بسالة الثوار استطاعت دحرهم.

معركة مجدل شمس الثالثة:

سبقت هذه المعركة، معارك في منطقة دورين وذلك مابين ١شباط، و٢٠ آذار من عام ١٩٢٦م.

قرّر الفرنسيون، وبعد إعادة سيطرتهم على البقاع الهجوم مرة ثالثة على مجدل شمس لمحو عار هزائمهم فيها، وللتفرغ معارك جبل العرب، فحشدوا لذلك قوات ضخمة بقيادة الجنرال مارتان.

قوام الحملة:

١- ٦ أَلوية مشاة.

٢- ٨ كوكبات فرسان.

٣- دبابات ومدفعية.

قدِّر إِجمالي هذه القوات بفرقة معزَّزة حوالي ١٥٠٠٠ رجل.

سير المعركة:

قرر الثوار ملاقاتها قبل وصولها بلدة مجدل شمس فاصطدموا بها في منطقة خان أَرنبة، واضطروها للتراجع وذلك في ٣٠ آذار عام ١٩٢٦م.

عاود الفرنسيون تجميع قواتهم، وتقدموا من جديد فلاقاهم الثوار في منطقة وادي العسل في ٢ نسيان من ذات العام، وكما يقول منير الريِّس في (الكتاب الذهبي):

(كان القتال وجهاً لوجه في حين نشبت معارك أُخرى في منطقة جباتا الخشب، والهضاب المحيطة بها.

تراجع الثوار نتيجة للتفوق العددي الهائل للعدو وغزارة نيران المدفعية، والطيران.

وفي مساء ٢ نيسان/أبريل ١٩٢٦م طوَّق العدو مجدل شمس من جديد، واستمرت المعركة يوم الجمعة ٣ نيسان من الفجر، وحتى المغيب، وقد استطاع الثوار اختراق الحصار، واتجه معظمهم مع عائلاتهم إِلى جبل العرب لمتابعة النضال.

في ٢٢ نسيان/أبريل من عام ١٩٢٦م، تمَّ من جديد احتلال مدينة السويداء للمرة الثانية، وبعد معارك رهيبة. كما احتل المستعمرون الفرنسيون مدينة شهبا، شمال السويداء بـ ١٧كم، وتابع الثوار كفاحهم وإِصدار بياناتهم.

أَما القوات الفرنسية فقد تابعت هجماتها باتجاه الجنوب نحو قرى صلخد، وأُم الرمان، ويقول الجنرال أَندريا في كتابه عن معركة أُم الرمان: (إِنها من أَصعب المعارك التي مرَّت بها قواتنا، إِنها معركة تدعو للغضب، إِنه هروب مؤسف، بل مخجل).

أُعيد تشكيل القوات الفرنسية، وتحشدت في منطقة الغارية على حدود الجبل الجنوبية بين الأُردن، وسوريا.

تتابع القتال في شمال، شرق الجبل، وجرت معارك احتلال قرية عنز، وصلخد، ومعركة قرية الرشيده حيث جرح فيها المجاهد الكبير رشيد طليع، وتوفي بعد ذلك متأَثراً بجراحه. وانتقل القتال شمالاً حيث جرت معارك اللّجاة

الباسلة في السوخر، وقيصما، وفي وادي اللواء، ومعركة قرية طربا الشديدة البأس.

يقول سلامة عبيد في كتابه (الثورة السورية، حقائق لم تنشر):

استطاع الفرنسيون بث الشقاق بين قادة الثورة، وهكذا بدأَت الثورة تتحول من اندفاع جماهيري ثوري ينسج كفاحها الفلاحون الفقراء، يروّون بدمائهم عروق الوطن من أَجل شموخ شجرة الحريّة، إلى عصابات متفرقة، تحرِّض على استمرار الثورة بالترغيب حيناً وبالترهيب حيناً آخر، حتى تلاشت المقاومة، ولو كانت الثورة في بقية المحافظات السورية بمستوى الثورة في جبل العرب، وغوطة دمشق، وإقليم جبل الشيخ، لكان الانتصار حتمياً، ولما استطاعت فرنسا أَن تواجه ثورة مساحتها كل الوطن).

اجتمع الثوار في موقع (عيون) وقد أُصيبوا بخيبة الأَمل لكثرة المنسحبين من الثورة، وكثرة المتطوعين مع السلطة الفرنسية التي كانت تغري الشبان بالمال والرتب العسكرية. لذا قرَّر الثوار مفاوضة الحكومة الأُردنية لاستقبالهم كلاجئين على أَراضيها.

نزح ماتبقى من الثوار مع عائلاتهم إِلى وادي السرحان على الحدود الأُردنية ـ السعودية، ليعانوا شظف العيش وأَهوال الجوع، والعطش، مع قائدهم سلطان الأَطرش لمدة ١١عاماً. أَما ما تبقى منهم فبقي في منطقة النبك.

وبعد نضال مرير، وصبيب من الدماء نالت سوريا حريتها في ١٧ نسيان من عام ١٩٤٦م، إنه الاستقلال الذي نتذكر فيه كل عام أُولئك الذين من أَجل أن نبقى أَحراراً، غرزوا أَجسادهم في عمق تراب الوطن.

مراجع البحث

١- لوتسكي.....................تاريخ الأقطار العربية الحديث

٢- ج. أَندريا..............................ثورة الدروز، وتمرد دمشق

٣- سلطان الأَطرش......مذكرات الثورة السورية الكبرى

٤- دوتي...الفرقة الجهنمية

٥- سلامة عبيد................الثورة السورية، وثائق لم تنشر

٦- منير الريِّس...الكتاب الذهبي

٧- حنا أبي راشد...جبل الدروز

٨- جاد اللّه عزالدين..............(أَرشيف)، صُحُف، وثائق

٩- د. شهبندر......................................مذكرات من الثورة

١٠- ستيفن هامسلي.............سوريا ولبنان تحت الانتداب

١١- علي رضا..................................قصة الكفاح الوطني

١٢- جميل العلواني.................نضال شعب، وسجل خلود

الفهرس